سلسلة

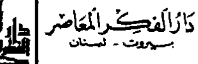
غزوات الرسول الأعظم

صلى الله عليه وسلم

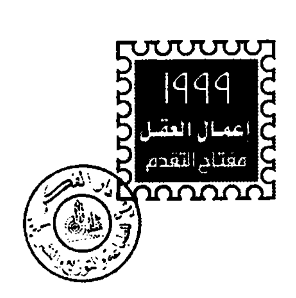
الدكتور شوقي أبو خليل

حنين والطائف

لَنْ نُغْلَبَ ٱلْيَوْمَ مِنْ قِلَّةٍ







الرقم الاصطلاحي للسلسلة: ٣٠٠٤
الرقم الاصطلاحي للحلقة: ٠٦٣١,٠٣١
الرقم الدولي للسلسة: ISBN: 1-57547-102-7
الرقم الدولي للحلقة: ISBN: 1-57547-110-8
الرقم الموضوعي: ٢٧٠
الموضوع: السيرة النبوية
السلسلة: غزوات الرسول الأعظم
العنوان: حنين والطائف
التأليف: الدكتور شوقي أبو خليل
الصف التصويري: دار الفكر - دمشق
التنفيذ الطباعي: المطبعة العلمية - دمشق
عدد الصفحات: ١٥٢ ص
قياس الصفحة: ١٤× ٢٠ سم
عدد النسخ: ١٥٠٠ نسخة

دار الفكر بدمشق
برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص. ب: (٩٦٢) دمشق - سورية
برقياً: فكر
فاكس ٢٢٣٩٧١٦
هاتف ٢٢٣٩٧١٧، ٢٢١١١٦٦
http://www.fikr.com/
E-mail: info @fikr.com

إعادة
١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م
ط١: ١٩٨٣م

بسم الله الرحمن الرحيم



حنين والطائف / شوقي أبو خليل . ـ دمشق : دار الفكر، ١٩٩٦ . ـ ١٥٢
ص : ؛ ٢٠ سم.
١ ـ ٩٥٦,٠٢ خ ل ي ح ٢ ـ ٢١٩,٥ خ ل ي ح
٣ ـ العنوان ٤ ـ أبو خليل
مكتبة الأسد
ع ـ ١٩٩٦/٦/٧٠٤

مَابَدَأ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم حرباً قطّ ،
إذ كان حريصاً ألا يُراق دم إنساني
فهو نبيُّ المرحمة .
ولكن إذا كانت لا محالة واقعة كان رَجُلَها
الأول . . فهو نبيُّ الملحمة .
لقد كان عظيماً في رحمته بالناس ،
عظيماً في استعداده للحرب ، عظيماً في
خططه ، عظيماً في تحقيق النّصر واستثماره .



تصدير

☆ ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى المُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الكَافِرِينَ * ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

[التوبة ٩ / ٢٥ ـ ٢٦ ، ٢٧]

بسم الله ، والصَّلاة والسَّلام على رسول الله محمد بن عبد الله ، وبعد .

يقول الله تعالى في محكم التنزيل : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ﴾ ، وذلك يوم بدر ، ويوم الأحزاب ، وفي غزوة خيبر ، ويوم الفتح الأعظم .. ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ﴾ ، وقع مرض نفسي روحي : ﴿ إِذْ أَعْجَبَتْكُم كَثْرَتُكُمْ ﴾ ، كان قلبهم في تلك المواطن مع الله عز وجل ،

لا مع عددهم ، ولا مع سلاحهم وعتادهم ، أمَّا بعد استكمال العدة ، فكانوا يطلبون النصر من الله ، بمقدار طاعته والتزام أوامره .

وفي حُنَيْنٍ ، مرض روحي قلبي طارئ ، حلَّ بسبب وجود ألفين من الطُّلقاء - المسلمين الجُدُد - حديثي العهد في الإيمان ، لم ينضج إيمانهم بسبب قِصَر فترة الصحبة والتربية والتزكية ، فكانت الغفلة عن الله عز وجل ، والاعتماد على الكثرة ، وهذا في عُرْف الإسلام ومنهجه ، خروج من الطاعة ، ودخول في المعصية . فكانت الهزيمة عند بدء المعركة . ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴾ ، فجعلها الله قرآناً يُتْلَى ، درساً وتذكرةً للمسلمين حتى يوم الدين .

وهنا يتجلَّى أن الإسلام الذي يركِّز على الأخذ بالوسائل المطلوبة ، والأسباب الكاملة في كل أمر ، ينظر إلى النِيَّة والقلب ، الذي يجب أن يكون مملوءاً اعتماداً على الله ، يتقوَّى بالله ، يستلهم النصر منه ، لا تواكل ولا غرور ، ولا إعجاب بكثرة ، ولا اعتماد إلا على الله ، ولا غفلة ولا كِبْر ، فالكِبْرُ دوماً مقرون بالذل .

ما اجتمعَ للمسلمين قبل حنين ، جيشٌ بعدد جيش حنين ، ومع ذلك كانوا يحقِّقون النصر السهل السريع ، وكانت الهزيمة في بدء لقاء هوازن بحنين ، بسبب الإعجاب بالكثرة ، ونسيان الاعتماد الروحي والقلبي على الله ، ظنُّوا أن أسباب النصر تحققت بكثرتهم ، ونسوا مسبب الأسباب .

فَحُنَين ، درس خالد عظيم ، وتعليم متواصل مستمر لكل مسلم ، أن يكون في كل حال مع الله عز وجل ، واثقاً به ، معتمداً عليه ، مستلهماً معونته ، طالباً تأييده .

﴿ يَاأَيُّها ٱلَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ .. ﴾[1] أمر إلهي في كتاب الله .

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَاٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ .. ﴾[2] أمر إلهي في كتاب الله أيضاً .

﴿ يَاأَيُّها ٱلَّذينَ آمَنُوا إذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا وَٱذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً .. ﴾[3] أمر إلهي أيضاً في كتاب الله العظيم .

فبعد الامتثال التام ، من حيث الجوارح والأعضاء ، لجوء القلب إلى الله عز وجل .

من حيث الظاهر في حنين ، رُبُع المسلمين يكفي ، ولكن المخالفة النفسية المعنوية ، سبَّبت خللاً قلبياً ، إنها معصية روحية نفسية ﴿ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ﴾ ، فأين الله ؟ والإسلام برنامج يجمع بتوازن عجيب بين العمل والنيَّة ، بدليل أن الذين خرجوا إلى حنين جُلُّهم من

---

(١) سورة النساء ٤ / ٤ .

(٢) سورة الأنفال ٨ / ٦١ .

(٣) سورة الأنفال ٨ / ٤٥ .

حيث العمل والصلاح : يتَّصِفُون بصلاة ، وصوم ، وحج ، وإيمان ، وتهجُّد ، وخشوع ، قال بعضهم ـ من الذين أسلموا حديثاً ـ : « لن نغلب اليوم من قِلَّة » ، وما أنكر من سمع ذلك ، ولعل بعضهم ما نطق بها لسانُه ، وأقرَّها قلبُه ، ومع وجود محمد رسول الله ﷺ بينهم ، قائداً مرشداً مربياً مزكِّياً ، كان شؤم المعصية على المجموع ، ومع معصية واحدة ، خلقيَّة تربويَّة ، بُدِّل النصرُ هزيمةً .

ولكن الله عز وجل وَلِيّ الذين آمنوا ولو أخطؤوا ، فيتولاَّهم ولا يدعهم لأنفسهم : ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، فمع هول المفاجأة ، وتضعضع الجيش ، أنزل الله سكينته على الجُنْد . والسَّكينَةُ دواء وحس روحي ، لمرض ومعصية روحية ، فزال مع السَّكينة الرعب ، والخوف ، والاضطراب ، ﴿ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الكَافِرِينَ ﴾ ، وحفنة من تراب من يد رسول الله ﷺ كانت أعظم من جيش جرار ، فدخلت رمالها في أعين المشركين ، مع أنهم كانوا بحاجة إلى أكياس من الرمل ، لكنها المعجزة ، وسمعوا صلصلة بين السَّماء والأرض أفزعت قلوبهم ، فكيف وصلت حفنة التراب إلى أعينهم جميعاً ؟ : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى ﴾[1] .

---

(١) سوعة التوبة ٩ / ١٧ .

النصر من عند الله ، ولا يتحقَّق إلا بطاعته وامتثال أوامره ، إسلاماً كليّاً ، ومخالفة روحيَّة في جيش عدده اثنا عشر ألفاً أوجبت الهزيمة ، فكيف إذا تعدَّدت المعاصي ؟ إن المعاصي سموم كُلُّها توجب التعاسة ، إما في النفس ، وإما في الجسد ، وإما في كليهما معاً .

☆ ☆ ☆

وسنرى بعد أحداث حُنَيْن ، أحداث حصار الطائف حيث :

- من آداب الجهاد في الإسلام عدم قتل الوليد أو المرأة أو الأجير ، (أي العامل) .

- وتحرير العبيد والمضطهدين : « أولئك عتقاء الله » .

- واستخدام رسول الله ﷺ للمنجنيق والدبابة لأوَّل مرة في تاريخ الإسلام .

- وفك الحصار لقرب حلول الأشهر الحُرُم من ناحية ، ولافتقار المسلمين لأدوات الحصار من ناحية ثانية .

وسنتساءل ، لنجد الجواب السليم المقنع :

- لماذا استعان رسول الله ﷺ بحنين والطائف بالمشركين ، وما استعان بهم قبلاً ؟

- ولماذا أمر ﷺ بقطع أعنابِ ثقيف ونخيلهم ؟

- ولماذا وزَّع ﷺ الغنائم على المؤلَّفة قلوبهم دون أصحابه ؟

مع بحث عن اهتمام المسلمين بعد الطائف بصناعة الأسلحة عامة وتطويرها من حيث التصنيع والاستخدام ، وبصناعة معدات الحصار خاصة .

وسيلمس القارئ عظمة رسول الله ﷺ التي لا تُضَاهى في كل الأحداث ، وفي مواقف عديدة ، مع شيبة بن عثمان الذي جاء لاغتياله ، ومع الأعراب الذين جاؤوا يطلبون الغنيمة ، ومع هوازن عندما جاءت إلى الجِعْرانة تلتمس العفو والصفح .. فلا يوجد في التاريخ الإنساني شخصيَّة تمتَّعت باحترام وتكريم وتقدير أعدائها كمحمد بن عبد الله ﷺ .

فإلى حنين والطائف أحداثاً وتعليقاً على بركة الله ، فهو من وراء القصد .

دمشق في : ١٤ / جمادى الأولى / ١٤٠٣ هـ

الموافق : ٢٦ / شباط (فبراير) / ١٩٨٣ م

شوقي أبو خليل

دمشق - سورية

ص . ب : ٦٢٢٢

Shawki@ Fikr.com

غزوة هوازن
يوم حنين

☆ « دريد بن الصمة لمالك بن عوف النّضري : إنَّك تقاتِلُ رجلاً كريماً قد أوطأ العرب ، وخافته العجم ، وأجلى اليهود » .

سَبَبُها : اهتزَّ مركز قبيلة هوازن ، وقبيلة ثقيف[1] ، بعد أن فتح الله مكَّة وأنهى الشرك والوثنيَّة فيها ، وأدركت القبيلتان أنهما مستهدفتان بعد قريش ، وقال أهل الرأي فيهما : لا ناهية لمحمد دوننا ، وعزموا على أن يغزوه قبل أن يغزوهم ، فجمع أمير هوازن مالك بن

---

(١) هَوْزَن : اسم طائر جمعه هَوَازِن ، هذا من حيث اللغة ، وهوازن قبيلة من قيس سكنت شمال شرق مكة ، إلى الجنوب الشرقي من المدينة . لسان العرب : جـ ١٣ ص ٤٣٦ ، وثَقِفَ الشيء ثَقْفاً وثِقافاً وثُقُوفةً : حَذَقه ، وثقيف حيٌّ من قيس أيضاً . لسان العرب : جـ ٩ ص ١٩ . وسكنت ثقيف مدينة الطائف ، إلى الجنوب الشرقي من مكة . كتاب الأنساب للسمعاني : جـ ٣ ص ١٣٣ ، وفي معجم قبائل العرب : جـ ٣ ص ١٢٣١ : هوازن بن منصور بطن من قيس بن عَيْلان ، منازلهم : كانوا يقطنون في نجد مما يلي اليمن ، ومن أوديتهم حنين (واد قريب من الطائف بينه وبين مكة بضعة عشر ميلاً) .

عوف النَّصْري[1] قبيلته، وثقيف كلها، واجتمعت نصر وجُشَم وسعد بن بكر[2]، وناس قِلَّة من بني هلال. وغاب عنه من هوازن: كعب وكلاب.

دُرَيْدُ بنُ ٱلصِّمَّة:

وكان في بني جُشَم دريد بن الصمة، شيخ كبير بلغ المئة والعشرين من عمره[3]، وقد ذهب بصره، وصار لا يُنْتَفَعُ إلاَّ برأيه، ومعرفته بالحرب وخبرته في أُمورها، فهو صاحب رأي وتدبير، فقد كان شيخاً مجرِّباً.

وقاد ثقيف كنانة بن عبدياليل، وإلى جانبه قارب بن الأسود بن مسعود بن مُعَتِّب.

وفي بني مالك ذو الخِمَار سُبَيْع بن الحارث، وأخوه أحمر بن الحارث.

---

(١) وهو يومئذ ابن ثلاثين سنة. ابن سعد: جـ ٢ ص ١٥٠، السِّيرة الحلبيَّة: جـ ٣ ص ١٢٢.

(٢) الذين كان رسول الله ﷺ مسترضعاً فيهم. السيرة الحلبية: جـ ٣ ص ١٢١.

(٣) ماأثبتناه أعلاه ماورد في السِّيرة النبوية لابن كثير: جـ ٣ ص ٦١١، وفي الوفا بأحوال المصطفى: جـ ٢ ص ٧٠٢: وهو ابن سبعين ومئة يُقاد في شِجَار، وهو مركب من أعواد يُهيَّأ للنساء. وفي السِّيرة الحلبية: جـ ٣ ص ١٢١: وقيل بلغ مئة وخمسين، وقيل بلغ مئة وسبعين وقيل بلغ المئتين، ويستخلص مما سبق أنه كان شيخاً كبيراً مجرّباً، وكما قال الطبري جـ ٣ ص ٧١: «ليس فيه شيء إلاَّ التيُّن برأيه ومعرفته بالحرب».

وجِمَاع أمر الناس إلى مالك بن عوف النَّصْري .

وأحضر مالك بن عوف النَّصْري مع الجند أموالهم ونساءهم وأبناءهم . فلما نزل بأَوْطاس[1] ، اجتمع إليه الناس وفيهم دُرَيْد بن الصِّمَّة في شِجَار[2] له يُقَاد به ، فلما نزل قال : بأيِّ وادٍ أنتم ؟

قالوا : بأَوْطاس .

قال دريد : نِعْم مَجَالُ الخيل لا حَزْن ضَرِس[3] ، ولا سَهْلَ دَهِس[4] ، مالي أسمع رُغَاء البعير ، ونُهاق الحمير ، وبكاء الصغير ، ويُعَار الشاء ؟

قالوا : ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم .

قال : أين مالك ؟

قالوا : هذا مالك ، ودُعي له .

قال : يا مالك ، إنك قد أصبحتَ رئيس قومك ، وإنَّ هذا يومٌ

---

(١) أوْطاس : واد في ديار هوازن . معجم البلدان : جـ ١ ص ٢٨١ ، لذلك سُمِّيت الغزوة أيضاً « غزوة أوطاس » ، وهي - لغة - من وطست الشيء وطسأ إذا كدرته وأثرت فيه ، والوطيس : نقرة في حجر توقد حوله النار فيطبخ به اللحم ، والوطيس : التنور . لسان العرب : جـ ٦ ص ٢٥٥ .

(٢) الشِّجارُ : الهَوْدَج الصغير الذي يكفي واحداً . لسان العرب : جـ ٤ ص ٣٩٧ ، وفي رأي : الشجار خشب الهودج ، وأشبه الهودج إلا أنه مكشوف الأعلى .

(٣) الحزن : المرتفع من الأرض ، ماغلظ من الأرض ، والضرس : الذي فيه حجارة محدودة ، والضرس : الخشن أيضاً .

(٤) الدهس : اللَّين الكثير التراب .

كائن له ما بعده من الأيام ، مالي أسمع رغاء البعير ، ونهاق الحمير ، وبكاء الصغير ، ويُعَار الشاء ؟

قال مالك : سُقْتُ مع الناس أبناءهم وأموالهم .

دريد : وَلِمَ ؟

مالك : أردتُ أن أجعل خلف كُلِّ رجل أهله وماله ليقاتل عنهم .

دريد (وقد انقض به[1] زاجراً مؤنِّباً) : راعي ضأن والله ، مالك وللحرب !؟ هل يَرُدُّ المنهزمَ شيء ؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلاَّ رجلٌ بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فُضِحْتَ في أهلك ومالك ، إنَّكَ تقاتل رجلاً كريماً قد أوطأ العرب ، وخافته العجم ، وأجلى اليهود[2] . ثم قال : مافعلت كعبٌ وكلاب ؟

مالك : لم يشهد منهم أحد .

دريد : غاب الحدُّ والجدُّ ، لو كان يومَ عَلاء ورفعة لم تغب عنه كعب وكلاب ، لوددت أنكم فعلتم مافعلت كعب وكلاب ، فمن شهدها منكم ؟

قالوا : عمرو بن عامر ، وعوف بن عامر .

---

(١) فانقض به : أي صوَّت بلسانه في فمه ، من النقيض ، وهو الصوت ، وقيل الإنقاض بالإصبع الوسطى والإبهام ، كأنه يدفع بها شيئاً .

(٢) السِّيرة النبويَّة والآثار المحمديَّة : جـ ٢ ص ٣٤٣ . وفي هذا المصدر ، قال دريد لمالك : « رويعي ضأن ، والله ، مالك وللحرب ؟ » .

قال : ذانك الجذعان[1] من عامر لا ينفعان ولا يضرّان .

ثم قال دريد : يامالك ، إنّك لم تصنع بتقديم البيضة بيضة هوازن إلى نُحُور الخيل شيئاً ، ارفعهم إلى مُتَمنَّع بلادهم[2] ، وعَلْياء قومهم ، ثم ألقَ الصُّبَاءَ[3] على مُتُون الخيل ، فإن كانت لك لحقَ بك من وراءك ، وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك .

المُتَهوِّرُ سَقِيمُ الرأي :

سمع مالك بن عوف النَّصْري رأي دريد بن الصمة الخبير المجرّب ، فقال : والله لا أفعل ، إنّك قد كبرت وكَبِر عقلك ، والله لَتُطيعُنَّني يا معشر هوازن ، أو لأتكِئَنَّ على هذا السَّيف حتى يخرج من ظهري ، وكره مالك - وهو الفارس الشجاع - أن يكون لدريد فيها ذِكْرٌ أو رأيٌ ، فقالوا : أطعناك .

فقال دريد بن الصمة : يا معشر هوازن ، إن هذا فاضحكم في عورتكم (يعني النّساء والذُّرِيَّة) وممكّن منكم عدوكم ، ولاحق بحصن ثقيف وتارككم ، فانصرفوا واتركوه ، فأبوا ، فلما رأى دريد أنهم خالفوه قال : هذا يوم لم أشهده ولم يَفُتْني :

---

(١) الجَذَعُ : الصغير السن ، الشاب الحدث . لسان العرب : جـ ٨ ص ٤٣ .

(٢) في الطبري : جـ ٣ ص ٧٢ : ارفعهم إلى أعلى بلادهم ، وَعُلْيا قومهم .

(٣) الصُّباء : يعني بهم المسلمين .

يــالَيْتَني فِيهــا جَــذَعْ[1] أَخُبُّ فِيهـــا وَأَضَــعْ[2]
أَقُـودُ وَطْفَــاءَ[3] الــزَّمَــعْ[4] كَــأَنَّهــا شَــاةٌ[5] صَــدَعْ[6]

ثم جعل مالك النِّساء فوق الإبل وراء المقاتلة صفوفاً ، وجعل وراء صفـوف الإبـل البقر والغنم لئـلا يفروا . وفي روايـة : صُفَّت الخيـل ، ثم الرجالة المقاتلـة ، ثم صُفَّت النِّسـاء على الإبل ، ثم صُفَّت الغنم ، ثم صُفَّت النعم[7] .

وقال مالك بعدها للنـاس : إذا رأيتموهم فـاكسروا جُفونَ سيوفكم ، ثم شُدُّوا شَدَّةَ رجلٍ واحد عليهم .

استطلاع هَوَازِن :

وأرسل مالك بن عوف النَّصْري عيوناً من رجالـه يستطلعون خبر

(١) الجذع : الشاب الحدث كما مر قبل ثلاث حواشي .
(٢) الخبب والوضع : ضربان من السَّير .
(٣) وطفاء : طويلة الشعر .
(٤) الزَّمع : جمع زمعة وهي هنة زائدة وراء الظلف .
(٥) شاة : حمار الوحش ، أو الوعل .
(٦) صدع : الفتى القوي ، والمتوسِّط بين العظيم والحقير عند ابن هشام : جـ ٤ ص ٦١ .
(٧) لما سبق من أحداث راجع الاكتفاء : جـ ١ ص ١٤٣ / ب ، السِّيرة النبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٦١١ و ٦١٢ ، ابن سعد : جـ ٢ ص ١٤٩ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٨٧ ، ابن خلدون : جـ ٢ ص ٤٥ و ٤٦ ، السِّيرة الحلبيَّة : جـ ٣ ص ١٢١ و ١٢٢ ، ابن هشام : جـ ٤ ص ٦٠ و ٦١ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٣٢٢ ، الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١٧٧ ، الطبري : جـ ٣ ص ٧٠ و ٧١ ، السِّيرة النبويَّة والآثار المحمديَّة : جـ ٢ ص ٣٤٢ .

المسلمين ، « ثلاثة نفر يأتونه بخبر أصحاب رسول الله ﷺ »[1] ، فعادوا إليه وقد تفرّقت أوصالهم ، فقال لهم مالك : ويلكم ما شأنكم ؟

قالوا : رأينا رجالاً بيضاً على خَيْل بُلْق[2] ، فوالله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى ، فما ردَّ ذلك مالكاً عن وجهه ، بل مضى إلى ما أراد .

☆ ☆ ☆

سلاح صفوان بن أُميّة :

علم رسول الله ﷺ بما حشده مالك بن عوف النَّصْري ، فقرَّر السير إليه وإلى ما جمع ، وذكر له أن عند صفوان بن أُميَّة أدراعاً وسلاحاً[3] فأرسل إليه وهو يومئذ مُشْرك ، فقال ﷺ : « يا أبا أُميَّة ، أَعِرْنا سلاحك هذا نَلْقَ فيه عدوَّنا غداً » .

فقال صفوان : أَغَصْباً يا محمد !؟

قال ﷺ : « بل عاريةٌ مضمونة حتى نؤديها إليك » .

---

(١) ابن سعد في الطبقات الكبرى : جـ ٢ ص ١٥٠ .

(٢) البَلَقُ : سواد وبياض ، لسان العرب : جـ ١٠ ص ٢٥ .

(٣) وفي البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٣٢٤ : « استعار من صفوان دروعاً وأفراساً ، وفي السِّيرة النبويَّة والآثار المحمديَّة ، جـ ٢ ص ٣٤٤ : (واستقرض ﷺ من ثلاثة نفر من قريش ، أخذ من صفوان بن أُميَّة خمسين ألف درهم ، ومن عبد الله بن ربيعة أربعين ألف درهم ، ومن حويطب بن عبد العُزّى أربعين ألف درهم ، فرّقها في أصحابه أهل الضعف ليستعينوا بها ، وكان ذلك عند عزمه على الخروج لحرب هوازن ، ثم وفّاها مما غنمه من هوازن) .

فقال صفوان : ليس بهذا بأس ، فأعطاه مئة درع[1] بما يكفيها من السلاح . وسأله ﷺ أن يكفيهم حملها ففعل ، وضاع بعضها ، فقال ﷺ لصفوان : « قد فقدنا من أدراعك ، فهل نغرم لك ؟ » ، فقال صفوان : أنا اليوم يا رسول الله في الإسلام أَرْغَبُ ، لا يا رسول الله ، إن في قلبي اليوم مالم يكن يومئذ[2] .

واستعار ﷺ من ابن عمه نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ثلاثة آلاف رمح ، وقال له : « كأني أنظر إلى رماحك هذه تقصف ظهر المشركين »[3] .

وفي السادس من شوال سنة ثمان للهجرة سار رسول الله ﷺ إلى حنين فوصلها في العاشر من شوال ، واستخلف على مكّة عَتّاب بن أُسيد بن أبي العيص بن أُميّة بن عبد شمس الأُموي ، وكان عمره إذ ذاك حوالي عشرين سنة .

وسار معه ﷺ اثنا عشر ألفاً ، عشرة آلاف من أصحابه جند الفتح

---

(1) وفي ابن خلدون : جـ ٢ ص ٤٦ : « وقيل أربعمئة » ، وأغلب المصادر ذكرت « مئة درع » ، راجع الاكتفاء : جـ ١ ١٤٤ / ١ ، الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١٧٨ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٨٩ ، ابن هشام : جـ ٤ ص ٦٢ ، السّيرة الحلبيّة : جـ ٣ ص ١٢٣ ، الطبري : جـ ٣ ص ٧٣ .

(2) السّيرة النبويّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٦١٤ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٣٢٤ .

(3) السّيرة الحلبيّة : جـ ٣ ص ١٢٣ .

الأعظم ، وألفان من أهل مكة الطُّلَقاء[1] ، « وخرج الناس معه وأهل مكة ركباناً ومشاةً حتى النساء خرجن يمشين على غير وَهَن ، وَهُنَّ رجاء للغنائم »[2] .

حَديثو عَهْدٍ بالجاهِلِيَّة :

قال الحارث بن مالك : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حديثو عهد بالجاهليَّة ، فسرنا معه إلى حنين ، وكانت لكفار قريش ومن سواهم من العرب شجرة عظيمة خضراء ، يقال لها ذات أَنْواط ، يأتونها كل سنة فيعلّقون أسلحتهم عليها ، ويذبحون عندها ، ويَعْكِفُون عليها يوماً . فرأينا ونحن نسير مع رسول الله ﷺ سدرةً[3] خضراء عظيمة ، قال : فتنادينا من جنبات الطريق : يا رسول الله ، اَجعل لنا ذات أَنْواط كما لهم ذات أَنواط ، فقال رسول الله ﷺ : « الله أكبر ! قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى لموسى : اَجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، إنكم قوم تجهلون ، إنَّها السُّنَن ، لتركبن سننَ من كان قبلكم »[4] .

---

(١) وعند عروة والزهري وموسى بن عقبة (١٤٠٠٠) ، لأنه ﷺ قدم باثني عشر ألفاً إلى مكة على قولهم ، وأُضيف إليهم ألفان من الطلقاء .

(٢) الاكتفاء : جـ ١ ص ١٤٤ / أ ، السِّيرة النبويّة والآثار المحمديّة : جـ ٢ ص ٣٤٤ .

(٣) السِّدْرُ : شجر النبق ، واحدتها سدرة ، لسان العرب : جـ ٤ ص ٣٥٤ .

(٤) السِّيرة النَّبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٦١٦ ، الاكتفاء : جـ ١ ص ١٤٤ / ب ، ابن خلدون : جـ ٢ ص ٤٦ ، ابن هشام : جـ ٤ ص ٦٤ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٣٢٥ ، السِّيرة الحلبيَّة : جـ ٣ ص ١٢٣ .

وقال فارس من فرسان المسلمين : يا رسول الله ، إني انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا ، فإذا أنا بهوازن عن بَكْرة أبيهم بِظُعُنهم وبنعمهم وشائهم ، اجتمعوا إلى حُنَين .

فتبسَّم رسول الله ﷺ ، وقال : « تلك غنيمةُ المسلمين غداً إن شاء الله » .

وبعث ﷺ عبدَ الله بن أبي حَدْرد الأسلمي[1] ، وأمره أن يدخل في الناس فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم ، ثم يأتيه بخبرهم . فانطلق عبد الله فدخل في هوازن وثقيف ، حتى سمع وعلم ما قد أجمعوا له من حرب رسول الله ﷺ ، ثم أقبل حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر[2] .

« مَنْ يَحْرُسُنَا اللَّيْلَةَ ؟ » :

وقال رسول الله ﷺ : « من يحرسنا الليلة ؟ » ، وهذا من قبيل الأخذ بالأسباب وتحكيم العقل ، فقال أنس بن أبي مَرْثد : أنا يا رسول الله ، فقال ﷺ : « فاركب » ، فركب فَرَساً له وجاء إلى رسول الله ﷺ ، فقال له : « استقبل هذا الشِّعب حتى تكون في أعلاه ، ولا نُغَرَّنَّ من قِبَلك الليلة » .

---

(١) عبد الله بن أبي حدرد ، وهو عبد الله بن سلامة بن سعد ، وسلامة هو أبو حدرد . الروض الأُنف : جـ ٤ ص ١٣٩ .

(٢) الاكتفاء : جـ ١ ص ١٤٤ / أ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٨٩ ، الطبري : جـ ٣ ص ٧٣ ، السِّيرة النبويّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٦١٣ .

فلما أصبح القومُ خرج رسول الله ﷺ إلى مُصَلاّه فركع ركعتين، ثم قال: «هل أحْسَسْتُم فارسكم؟»، قالوا: يا رسول الله ما أحسسناه، فثوّبَ[1] بالصلاة، فجعل رسول الله ﷺ يصلي ويلتفت إلى الشّعب، حتى إذا قضى صلاته قال: «أبشروا فقد جاءكم فارسكم»، فجعل ينظر إلى خلال الشجر في الشّعب، وإذا هو قد جاء حتى وقف على رسول الله ﷺ فقال: إني انطلقت حتى إذا كنت في أعلى هذا الشّعب حيث أمرني رسول الله ﷺ، فلما أصبحت طلعتُ الشّعْبين كليهما، فنظرت فلم أرَ أحداً، فقال له رسول الله ﷺ: «هل نزلت الليلة؟»، قال: لا، إلاّ مُصَلّياً أو قاضي حاجة، فقال له رسول الله ﷺ: «قد أوجبت، فلا عليك ألاّ تعمل بعدها!».

إن عمل أنس بن أبي مرثد يدل على مستوى رفيع من الإيمان. وخطاب رسول الله ﷺ له، خطاب إكرام وتشريف، تضمّن أنه رضي الله عنه قد قام بعمل جليل، وحصلت له حالة غفرت بها ذنوبه السالفة، وتأهّل لأن يُغْفر له ما سيحصل من الذنوب لو فرض وقوعه بها.

☆ ☆ ☆

---

(١) ثوّبَ الدّاعي تَثْوِيباً إذا عاد مرّة بعد أُخرى، ومنه تَثْوِيب المؤذّن إذا نادى بالأذان للناس إلى الصلاة ثم نادى بعد التأذين، فقال: الصلاة رحمكم الله، الصلاة، يدعو إليها عَوْداً بعد بَدْء، والتّثْويب: هو الدُّعاء للصلاة وغيرها. لسان العرب: جـ ١ ص ٢٤٧.

وقال العباس بن مِرْدَاس السُّلمي لما خرج المسلمون إلى لقاء هوازن :

أصابت العام رِعلاً غولُ قومهم ... وسط البيوت ولون الغول ألوانُ[1]
يا لهف أُم كلاب إذ تبيِّتهم ... خيل ابن هوذة لا تُنهى وإنسانُ[2]
لا تلفظوها وشدُّوا عقد ذمتكم ... أن ابنَ عمكم سعد ودهمانُ[3]
لن تَرْجعوها وإن كانت مُجلَّلة ... ما دامَ في النَّعَمِ المأخوذ ألبانُ[4]
شنعاء جُلِّل من سوآتها حَضَن ... وسال ذو شَوْغَرٍ منها وسُلْوانُ[5]
ليست بأطيب مما يَشْتوي حذف ... إذ قال : كل شواء العير جُوفانُ[6]
وفي هوازنَ قومٌ غير أن بهم ... داءَ اليماني فإن لم يغدروا خانوا
فيهم أخٌ لو وفَوْا أو بَرَّ عهدهم ... ولو نهكناهم بالطعن قد لانوا
أبلغْ هوازنَ أعلاها وأسفَلَها ... مني رسالة نُصْح فيه تِبْيَانُ
أَني أَظن رسول الله صابحكم ... جيشاً له في فضاء الأرض أرْكانُ

---

(١) رعل : قبيلة من سليم ، والغول : الداهية .

(٢) إنسان : قبيلة من قيس ثم من بنيَ نصر ، وقيل هم من بني جشم بن بكر .

(٣) سعد ودهمان : ابنا نصر بن معاوية بن بكر .

(٤) النَّعَمُ : واحد الأنعام ، وهي المال الراعية ، الإبل والشاء . لسان العرب : جـ ١٢ ص ٥٨٥ .

(٥) حضن : جبل من نجد ، ذو شوغر وسلوان : واديان .

(٦) حذف : اسم رجل ، العير : حمار الوحش .

فيهم أخــوكم سُلَيم غير تــاركِكُم   والمسلمــون عبــادَ الله غَسَّــانُ
وفي عضــادتــه اليمنى بنــو أســد   والأَجْرَبـانِ بنو عبس وذبيـانُ[1]
تكاد تَرْجُف منـه الأرض رهبتَـه   وفي مُقَــدَّمِــهِ أَوْسٌ وعثمانُ[2]

☆ ☆ ☆



---

(١) سماهما بالأجربين تشبيهاً بالأجرب الذي لا يقرب .

(٢) قبيلا مُزَينة ؛ والأبيات رواية ابن هشام : جـ ٤ ص ٦٣ .

لن نغلب اليوم من قلة

☆ « اللّهم إني أنشدك ماوعدتني ، اللّهم لا ينبغي لهم أن يظهروا علينا ، اللهم نزّل نصرك »

رسول الله ﷺ

ونظم رسول الله ﷺ الجند ..

فحمل لواء المهاجرين علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

وراية يحملها سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

وراية يحملها عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

ولواء الخزرج يحمله الحُبَاب بن المنذر رضي الله عنه .

ولواء آخر للخزرج مع سعد بن عُبَادة رضي الله عنه .

ولواء الأوس مع أُسَيْد بن حُضَير رضي الله عنه .

وفي كل بطن من الأوس والخزرج لواء أو راية يحملها رجل منهم .

وقبائل العرب فيهم الألوية والرايات يحملها رجال منهم(١) .

---

(١) ابن سعد : جـ ٢ ص ١٥٠ ، السّيرة الحلبيّة : جـ ٣ ص ١٢٣ ، السّيرة النبويّة والآثار المحمديّة : جـ ٢ ص ٣٤٥ .

ولما رأى بعض الطلقاء كثافة جيش المسلمين قالوا : لن نغلب اليوم من قلة[1] .

كَمِينِ الْمُشْرِكِينَ :

ووصل مالك بن عوف النّصْري ومن معه[2] إلى مضايق وادي حنين ، وكمن للمسلمين في شعاب الوادي ومضايقه ، وذلك بإشارة دريد بن الصّمّة ، فإنه قال لمالك : اجعل كميناً يكون لك عوناً ، إن حمل القوم عليك جاءهم الكمين من خلفهم وكررت أنت بمن معك ، وإن كانت الحملة لك لم يفلت من القوم أحد .

وأَقْبَلَ رسولُ الله ﷺ بمن معه حتى نزل بهم وادي حُنَين في (عماية الصبح) ، في (غباشة الصبح)[3] ، ولما صار المسلمون في بطن

---

(١) السّيرة النبويّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٦١٥ . وذكر بعض المؤرخين أن قائل هذه العبارة أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، حتى نسبها بعضهم إلى رسول الله ﷺ ، وهذا مرفوض ، لأنه ورد في مغازي الواقدي ، وهو غير ثقة ، ولأنها عبارة لاتصدر إلاّ من حديث عهد بالإسلام والإيمان .

(٢) قُدّر من مع مالك بن عوف النّصْري بعشرين ألف مقاتل وأكثر .

(٣) عماية الصبح : ظلامه قبل أن يتبيّن . الاكتفاء : جـ ١ ص ١٤٤ / ب ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٨٩ . وغباشة الصبح في ابن هشام : جـ ٤ ص ٦٥ ، ابن سعد : جـ ٢ ص ١٥١ ، الطبري : جـ ٣ ص ٧٤ ، السيرة الحلبية : جـ ٣ ص ١٢٣ ، وفي ابن خلدون : جـ ٢ ص ٤٦ : غبش الصبح .

الـوادي[1] ، ثـارت في وجـوههم خَيْـل المشركين فشـدت عليهم ، وأمطر رماةُ هوازن وثقيف ـ وكانوا رمـاة مهرة ـ وجوه خيل المسلمين بوابل من النَّبْلِ والسِّهَام ، فانكفأ الناس منهزمين لا يُقْبِل أَحد على أَحد .

« فَانشمروا[2] لا يلوي أحد على أحد »[3] .

وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين يقول : « أين أيها النـاس ؟ هلمُّوا إليّ أنا رسول الله ، أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله » .

« يامعشر الأنصار ، أنا عبد الله ورسوله ، ياعبـاس نـادِ : يـامعشر الأنصار ، ياأصحاب الشجرة ، يـاأصحـاب البيعـة يوم الحـديبيـة ، الله الله ، الكرَّة على نبيِّكم » .

« ياأنصار الله وأنصار رسوله ، يابني الخزرج[4] ، ياأصحـاب سورة البقرة[5] » .

---

(١) ورد في « معجم قبائل العرب » لعمر رضا كحالة جـ ٣ ص ١٢٣٢ : [لما نظر مالك بن عوف النَّصْري إلى جيش المسلمين ، قال : « هلكت هوازن ، فلا هوازن بعد اليوم »] .

(٢) أَنْشَمَرَ للأمر : تهيأ له ، والشِّمْرِيُّ الذي يمضي لوجهه ويركب رأسه لايرتـدع . لسـان العرب : جـ ٤ ص ٤٢٨ ، والمعنى هنا : انفضُّوا وانهزموا .

(٣) الطبري : جـ ٣ ص ٧٤

(٤) كانت الدعوة أولاً للأنصار ، ثم جُعِلَت للخزرج خاصـة ، لأنهم كانوا صُبُراً عنـد الحرب ، رضي الله عنهم .

(٥) خصَّ ﷺ سورة البقرة بـالـذكر ، لأنَّهـا أول سورة نزلت في المـدينـة المنـوَّرة ، ولأن فيهـا : ﴿ كَمْ مِنْ فِئَـةٍ قَلِيلَـةٍ غَلَبَتْ فِئَـةً كَثِيرَةً بِـإِذْنِ اللهِ ﴾ ، وفيهـا : ﴿ وَأَوْفُـوا بِعَهْـدِي أُوفِ =

«أي عباس، نادِ أصحاب السَّمُرة[1]».

فقال الأنصار: لبيك يا رسول الله، أبشر نحن معك، يالَبَّيكاه، فجاؤوا وسيوفهم بأيمانهم كأنها الشُّهب.

وقال رسول الله ﷺ: «اللهم إني أنشدك ما وعدتني، اللهم لا ينبغي لهم أن يظهروا علينا، اللهم نزِّل نصرك»[2].

فجعل الرجل يذهب ليعطف بعيره فلا يقدر على ذلك، لقد ركبت الإبل بعضها بعضاً «لكثرة الأعراب المنهزمين»[3]، فيقذف الرجل درعه عن عنقه، ويأخذ سيفه وترسه ثم يَؤُم الصوتَ حتى اجتمع إلى رسول الله ﷺ مئة رجل.

وثبت مع رسول الله ﷺ: علي بن أبي طالب، وأبو سفيان بن

= بِعَهْدِكُمْ﴾، وفيها: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ﴾، الآيات: ٢٤٩، ٤٠، ٢٠٧ حسب ورودها.

(١) أصحاب السمرة هم أصحاب بيعة الرضوان الذين بايعوا تحت الشجرة، وكانت الشجرة سمرة، الروض الأُنف: جـ ٤ ص ١٤٤.

(٢) لمجمل ماذكرنا من أقوال رسول الله ﷺ راجع الاكتفاء: جـ ١ ص ١٤٥ / أ، السِّيرة النبويَّة لابن كثير: جـ ٣ ص ٦٢٦، البداية والنهاية: جـ ٤ ص ٣٢٨، ابن سعد: جـ ٢ ص ١٥٧، عيون الأثر: جـ ٢ ص ١٩١، الطبري: جـ ٣ ص ٧٥، السِّيرة الحلبيَّة: جـ ٣ ص ١٢٤، الروض الأُنف: جـ ٤ ص ١٤٤.

(٣) السِّيرة النبويَّة: جـ ٣ ص ١٢٥.

الحارث بن عبد المطلب، وربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، والفضل بن العباس، وأيمن بن عبيد (ابن أمّ أيمن)[1]، وأسامة بن زيد بن حارثة، وأبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب والعباس آخذ بحكمة[2] بغلته البيضاء، وهو عليها ﷺ قد شَجَرَها[3].

«حم لا يُنْصَرُون»:

واجتلد الناس، وقال ﷺ: «الآن حمي الوطيس»[4]، وقال لبغلته دُلْدُل: «اربضي دُلْدُل»، فربضت[5]. وفي رواية: «البُدي[6]»، فوضعت بطنها على الأرض، فأخذ ﷺ حفنة من تراب، فرمى بها في وجوههم، وقال: «حم لا يُنْصَرُون»، «شاهت الوجوه»، فما بقي من

---

(١) أيمن بن أم أيمن: «أيمن بن عُبَيْد»، الطبري: جـ ٣ ص ٧٤، وأُمُّ أيمن هي حاضنة رسول الله ﷺ، وهو أخو أسامة بن زيد بن حارثة لأمه، استشهد يوم حنين. أسد الغابة: جـ ١ ص ١٨٩.

(٢) حَكَمَةُ اللجام (ما أحاط بحنكي الفَرَس)، وسُمِّيت حَكَمَة لأنها تَرُدُّ الدابة، لسان العرب: جـ ١٢ ص ١٤١.

(٣) شَجَرَها: أي ضربها بلجامها، ردَّها وكفَّها حتى فتحت فاها، لسان العرب: جـ ٤ ص ٣٩٧.

(٤) الوطيس: المعركة، لأن الخيل تَطِسُها بحوافرها، أي تدقها، والوطيس: التنور.. لسان العرب: جـ ٦ ص ٢٥٥.

(٥) رَبَضَتِ الدابَّةُ والشاة والخروف تَرْبِضُ رَبْضاً ورُبُوضاً ورِبْضَةً، وهو كالبُروك للإبل. لسان العرب: جـ ٧ ص ١٤٩.

(٦) لَبَدَ بالمكان يَلْبُدُ لُبوداً ولَبِدَ لَبَداً: أقام به ولَزِق. لسان العرب: جـ ٣ ص ٣٨٥.

المشركين رجل إلا ملأ عينيه وفمه تراباً من تلك القبضة ، فولّوا مدبرين[1] .

وقال ﷺ :

« أَنَا النَّبِيُّ لا كَذِبْ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ »

وقال : « أنا ابن العواتك من سُلَيم »[2] ، « انهزموا وربِّ محمد »[3] ، « انهزموا وربِّ الكعبة »[4] .

---

(١) الاكتفاء : جـ ١ ص ١٤٥ / أ ، السّيرة الحلبيّة : جـ ٣ ص ١٢٦ ، السّيرة النبويّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٦٢٨ ، الطبري : جـ ٣ ص ٧٦ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٩٠ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٣٢٦ ، ابن هشام : جـ ٤ ص ٦٦ ، الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١٧٩ ، ابن سعد : جـ ٢ ص ١٥١ .

(٢) العواتك : جمع عاتكة ، وامرأة عاتكة : مُحْمَرَّة من الطيب ، وسُمّيت المرأة عاتكة لصفائها وحُمْرتها ، والعواتك من سُلَيم ثلاث ، يعني جَدّاته ﷺ ، وهن : عاتكة بنت هلال بن فالَج بن ذَكْوان أم عبد مناف بن قصيّ جدّ هاشم ، وعاتكة بنت مُرّة بن هلال بن فالَج بن ذَكْوان أم هاشم بن عبد مناف ، وعاتكة بنت الأُوْقَص بنُ مُرَّة بن هلال بن فالج بن ذَكْوان أم وهب بن عبد مناف بن زهرة جد رسول الله ﷺ أبي أمه آمنة بنت وهب .
وبنو سُلَيْم تفخر بهذه الولادة ، ومن مفاخرها أيضاً أنها شهدت فتح مكة مع رسول الله ﷺ بألف رجل من أبنائها ، وقدّم ﷺ لواءهم يومئذ على الألوية ، ومنها : أن عمر كتب إلى أهل الكوفة والبصرة ومصر والشام أن ابعثوا إليّ من كل بلد أفضَلَه رجلاً ، فبعث أهل الكوفة عتبة بن فَرْقَد السُّلَميّ ، وبعث أهل البصرة مُجَاشِع بن مسعود السلمي ، وبعث أهل مصر مَعْنَ بن يزيد السلمي ، وبعث أهل الشام أبا الأعور السلمي . لسان العرب : جـ ١٠ ص ٤٦٤ .

(٣) السّيرة النبويّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٦٢٨ .

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد : جـ ٢ ص ١٥١ .

والتفت ﷺ إلى أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وكان ممن صبر يومئذ ، وكان حسن الإسلام حين أسلم ، وهو آخذ بثغر[1] بغلة رسول الله ﷺ ، فقال : « من هذا » ؟ ، قال : ابن أمك يا رسول الله .

هَلْ شَهِدَتْ ٱلمَلائِكَةُ حُنَيْناً ؟

١ ـ قال جبير بن مطعم[2] : إنا لمع رسول الله ﷺ يوم حنين ، والناسُ يقتتلون ، إذ نظرت إلى مثل البجاد[3] الأسود يهوي من السَّماء ، حتى وقع بيننا وبين القوم ، فنظرت فإذا نملٌ مبثوث منثور قد ملأ الوادي ، فلم يكن إلا هزيمة القوم ، فما كنا نشكُّ أنها الملائكة[4] .

---

(١) الثَّغَرُ : السَّيْرُ الذي في مؤخر السَّرْج . لسان العرب : جـ ٤ ص ١٠٥ .

(٢) جُبَيْر بن مُطْعِم بن عَدِيّ القرشي ، كان من حلماء قريش وسادتهم ، وكان يؤخذ عنه النسب لقريش وللعرب قاطبة ، وكان يقول : أخذت النسب عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وهو الذي أجار رسول الله ﷺ لما قدم من الطائف حين دعا ثقيفاً إلى الإسلام ، وكان أحد الذين قاموا في نقض الصحيفة التي كتبتها قريش على بني هاشم وبني المطلب ، أسلم بعد الحديبية وقبل الفتح ، وقيل أسلم في الفتح . أُسد الغابة : جـ ١ ص ٣٢٣ .

(٣) البجاد : كساء من الصوف ، جاء في الروض الأُنف : جـ ٤ ص ١٤٢ : يعني الكساء من النمل مبثوثاً ، رآهم جبير على صورة النمل المبثوث إشعاراً بكثرة عددها ، مع أن النملة يضرب بها المثل في القوة . فهي تحمل أربعة وعشرين ضعفاً من وزنها ، بينما لايحمل الحصان إلا حملاً يساوي وزنه فقط .

(٤) عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٩٩ ، الطبري : جـ ٣ ص ٧٧ ، السِّيرة النبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٦٣٣ ، السِّيرة الحلبيَّة : جـ ٣ ص ١٣٠ ، ابن هشام : جـ ٤ ص ٦٩ ، الكامل في =

٢ ـ وقال خديج بن العرجاء النَّصْري في ذلك :

وَلَمَّا دَنَوْنَا مِن حُنَين وَمَائِهِ رَأَيْنا سَوَاداً منكرَ اللَّوْنِ أَخْصَفَا[1]

بِمَلْمُومَةٍ شَهْبَاء لو قَذَفوا بِهَا شماريخ من عروى إذاً عَادَ صَفْصَفَا[2]

وَلَوْ أنَّ قومي طاوَعَتْني سُراتُهم إذاً مالَقِينَا العَارِضَ المتكشِّفَا

إذاً مالَقينا جُنْدَ آلِ مُحَمَّدٍ ثَمانينَ ألفاً وَاسْتَمَدُّوا بخندفا[3]

٣ ـ وقال عوف بن عبد الرحمن مولى أم بُرْثن ، وكان مِمَّن شهد حنيناً كافراً : لما التقينا نحن ورسول الله ﷺ لم يقوموا لنا حَلْبَ شَاةٍ ، فجئنا نهش سيوفنا بين يدي رسول الله ﷺ حتى إذا غشيناه فإذا بيننا وبينه رجال حِسَانُ الوجوه ، فقالوا : شاهت الوجوه فارجعوا ، فَهُزِمنا من ذلك الكلام[4] .

٤ ـ وقال عمرو بن سفيان الثقفي : انهزم المسلمون يوم حنين ، فلم

= التاريخ : جـ ٢ ص ١٧٩ ، الروض الأُنف : جـ ٤ ص ١٤٢ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٣٢٤ ، السّيرة النبويّة والآثار المحمديّة : جـ ٢ ص ٣٥١ .

(١) أخْصَفَ وخَصِيف : فيه لونان من سوادٍ وبياض ، وقيل : الأخصف والخصيف لون كلون الرّماد . لسان العرب :جـ ٩ ص ٧٣ .

(٢) بملومة : بكتيبة ، شهباء : بيضاء من كثرة السّلاح ، الشماريخ : القمم والأعالي ، صَفْصَفا : الصفصف : الفلاة ، الذي لانبت فيه .

(٣) خندف : أن يمشي مُقَاجاً ويَقْلِبَ قدميه كأنه يغرفُ بها وهو من التبختر ، الخندوف الذي يتبختر في مشيه . لسان العرب : جـ ٩ ص ٩٨ .

(٤) السّيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٦٣٠ ، ابن سعد : جـ ٢ ص ١٥٥ .

يَبْقَ مع رسول الله ﷺ إلاّ العباس وأبو سفيان بن الحارث، فقبض رسول الله ﷺ قبضةً من الحصباء فرمى بها في وجوههم، قال: فانهزمنا فما خُيِّل إلينا إلاّ أن كلّ حجر أو شجر فارس يطلبنا، وقال: فأعجرت ـ أسرعت ـ على فرسي حتى دخلت الطائف[1].

٥ ـ سُئِل يزيد بن عامر السُوَائي، وكان ممن شهد حنيناً مع المشركين ثم أسلم، عن الرُّعْبِ الذي ألقى اللهُ في قلوب المشركين يوم حنين كيف كان؟ قال: فكان يأخذ لنا بحصاة فيرمي بها في الطَّسْتِ فيطن، قال: كنا نجد في أجوافنا مثل هذا[2]، «وسمعوا صلصلة من السماء كمرّ الحديد على الطَّسْتِ الحديد».

٦ ـ وورد أيضاً: «وكان سيماء الملائكة يوم حنين عمائمُ حُمْرٌ قد أرخوها بين أكتافهم»[3].

ستة نصوص تثبت نزول الملائكة في حنين، وسير الأحداث تجعل ذلك قريباً إلى العقل والفكر، فانقلاب الهزيمة إلى نصر سريع تحقّق خلال لحظات، أمْرٌ مذهل: «فوالله ما راجعه ﷺ الناسُ إلاّ والأسارى عند رسول الله ﷺ مكتفون، فقتل الله منهم ـ من المشركين ـ من قتل،

---

(١) السّيرة النبويّة لابن كثير: جـ ٣ ص ٦٣١.

(٢) السّيرة النبويّة لابن كثير: جـ ٣ ص ٦٢٩.

(٣) ابن سعد: جـ ٢ ص ١٥١، السّيرة الحلبيّة: جـ ٣ ص ١٣٠.

وانهزم منهم من انهزم، وأفاء الله على رسوله ﷺ أموالهم وأبناءهم»[1].

والنصوص التي مرّت قيلت أمام من شهد المعركة، فلو بالغ أو أخطأ أصحابها لَهُوجِموا وكُذِّبوا في حينها، وبخاصة أن بعض من ذكرها كان من المشركين.

وما سبق يغنينا عنه، أن القرآن الكريم ذكر: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا، وعَذَّبَ الذِينَ كَفَرُوا، وَذَلِكَ جَزَاءُ الكَافِرِينَ﴾[2].

ولقد قلنا في غير هذا الكتاب[3] إن هناك طمأنينة كاملة تامة عند المسلم في صحة كتاب الله عز وجل، ويقينه بسلامة وصحّة النص القرآني ما جاء عاطفة وتسليماً فقط، بل جاء يقيناً عقلياً أيضاً في عصر أصبح فيه نقد النصوص علماً عالمياً. فكل ما جاء في القرآن الكريم حقائق ثابتة لا يقترب الشك منها، بعد أن تحقّقت في عصر العلم معجزة الإسلام الخالدة، إعجاز القرآن الكريم نَصّاً وكتابة، وأحداثاً وتشريعاً.

«آخِرُهَا أَقَلُّهَا شُرْباً»:

إنّ الطُّلَقاء حديثي العهد بالإسلام، مع الأعراب الذين خرجوا مع

---

(١) السّيرة النبويّة لابن كثير: جـ ٣ ص ٦٢٥، الطبري: جـ ٣ ص ٧٥، البداية والنهاية: جـ ٤ ص ٣٢٩.

(٢) سورة التوبة ٩ / ٢٦.

(٣) غزوة بدر الكبرى من هذه السلسلة ص ١٠٠ وما بعدها.

رسـول الله ﷺ ، والـذين قـالـوا : لن نغلب اليـوم من قِلَّـة ، كانـوا أوَّل المنهزمين عند اللقاء .

ولما انهزم الناسُ تكلم رجال من جُفَاة أهل مكَّة ، وجُفَـاة الأعراب بمـا في أنفسهم من الحقـد والضِّغْنِ ، فقـال أبـو سفيــان بن حرب ، وكان إسلامه بعدُ مدخولاً ، وكانت الأزلام بعدُ معـه يومئـذ ، قـال : لا تنتهي هزيمتهم دون البحر .

وصرخ كَلَدة بن الحنبل ، وهو مع أخيه لأُمّه صفوان بن أميَّـة وهو مُشْرك في المدَّة التي جعلها له رسول الله ﷺ بعد الفتح ، قال : ألا بَطُلَ السِحْرُ اليوم ، فقال له صفوان : اسكت فَضَّ الله فاك ! فوالله لأن يربُني - يملكني - رجـلٌ من قريش ، أحب إلي من أن يربُني رجـل من هوازن[1] .

وقال عكرمة بن أبي جهل : هذا بيد الله ليس إلى محمـد منـه شيء ، إن أُديل[2] عليه اليوم فإن له العاقبـة غـداً ، فقـال لـه سهيل بن عمرو : والله إن عهدك بخلافِهِ لحديث ! فقال له عكرمة : ياأبا يزيد ، إنـا كنـا

---

(١) الاكتفـــاء : جـ ١ ص ١٤٤ / ب ، السِّيرة النبـويَّـــة لابن كثير : جـ ٣ ص ٦١٩ ، السِّيرة الحلبيَّة : جـ ٣ ص ١٢٧ ، البداية والنهـايـة : جـ ٤ ص ٣٢٧ ، الطبري : جـ ٣ ص ٧٤ ، ابن هشام : جـ ٤ ص ٦٥ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٩٠ .

(٢) الإدَالـة : الغَلَبـةَ ، أُدِيل لنـا على أعـدائنـا أي نُصِرنـا عليهم وكانت الـدَّوْلـة لنـا ، والـدَّوْلـة : الانتقال من حال الشدَّة إلى الرَّخاء ، لسان العرب : جـ ١١ ص ٢٥٢ .

على غير شيء وعقولنا ذاهبة نعبد حَجَراً لا يضرٌّ ولا ينفع[1] .

فالهزيمة كان سببها حديثو العهد بالإسلام ، الطُّلَقاء والأعراب الذين لم يصحبوا رسولَ الله ﷺ صحبة كافية من حيث الزمن والتجاوب الروحي لنضوج التربية والتزكية والتعلُّم والتفقُّه ..

لذلك قيل : « آخرها أقلُّها شُرْباً »[2] ، فكن في أَوَّلِ مَن يَرِد .

« إنَّ اللهَ قَدْ كَفَى وَأَحْسَنَ يا أُمَّ سُلَيْم » :

وقال رسول الله ﷺ يوم حنين : « من قتل قتيلاً له عليه بَيِّنة فله سَلَبُه »[3] . فقتل أبو طلحة يومئذ عشرين رجلاً وأخذ أسلابهم .

ورأى رسول الله ﷺ أُمَّ سُلَيْم بنت مِلْحان[4] ، وكانت مع زوجها

---

(١) السِّيرة الحلبيَّة : جـ ٣ ص ١٢٧ .

(٢) كتاب الأمثال : ص ٢١٥ .

(٣) الاكتفاء : جـ ١ ص ١٤٥ / أ ، ابن سعد : جـ ٢ ص ١٥١ ، السِّيرة الحلبيَّة : جـ ٣ ص ١٢٨ ، الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١٧٩ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٩٩ ، البداية والنهاية :جـ ٤ ص ٣٢٩ ، الطبري : جـ ٣ ص ٧٧ ، السِّيرة النبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٦٢٠ ، ابن هشام : جـ ٤ ص ٦٦ ، وفي الروض الأُنف : جـ ٤ ص ١٤٢ : يرى الشافعي أن السَّلب للقاتل حكماً شرعياً جعل الإمام له أو لم يجعله ، استناداً لنص الحديث الشريف ، أما مالك فيرى أن ذلك يرجع إلى الإمام بعد بدء الحرب ، ويكره أن يقول ذلك قبل القتال لئلا يخالط النيَّة غرض آخر غير احتساب نفسه لله تعالى .

(٤) وهي الرمصاء أو الرميصاء بنت ملحان ، زوج أبي طلحة ، خالة النبي ﷺ من الرضاع هي وأُختها أُم حرام بنت ملحان . أُسد الغابة : جـ ٧ ص ٣٤٥ .

أبي طلحة ، حازمة وسطها بِبُرْدٍ لها ، وإنَّها لحامل بعبد الله بن أَبي طلحة ، ومعها جمل أبي طلحة ، وقد خشيت أن يغلبها الجمل ، فأدنت رأسه منها ، فأدخلت يدها في خِزَامته[1] مع الخِطام ، فقال رسول الله ﷺ : « أمّ سليم ! » ، قالت : نعم ، بأبي أنت وأُمي يا رسول الله ، اقتل هؤلاء الطلقاء الذين انهزموا ، كما تقتل هؤلاء الذين يقاتلونك ، فإنهم لذلك أهل ، فقال رسول الله ﷺ : « إن الله قد كفى وأحسن يا أُم سليم » ، « أَو يكفي اللهُ يا أُم سليم » . وكان بيد أُم سليم خنجرها ، فقال لها أبو طلحة : ماهذا الذي معك يا أُم سليم ؟ قالت : خنجر أخذته معي ، إن دنا مني أَحدٌ من المشركين بعجته به[2] . فقال أبو طلحة : ألا تسمع يا رسول الله ماتقول أُم سليم ؟ فضحك رسول الله ﷺ .

رسول الله ﷺ لم ينهزم :

سئل البراء بن عازب : أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين ؟

فأجاب : لكن رسول الله ﷺ لم يفر ، كانت هوازن رماةً ، وإنا لما حَمَلْنا عليهم انكشفوا ، فأكببنا على الغنائم ، فاستقبلتنا بالسِّهام ، ولقد رأيتُ رسول الله ﷺ على بغلته البيضاء ، وإن أبا سفيان بن

---

(١) الخِزامَةُ : حلقة تجعل في أحد جانبي مَنْخِرَي البعير ، وقيل : هي حلقة من شعر تجعل في وَتَرَة أنفه يُشَدُّ بها الزِّمام . لسان العرب : جـ ١٢ ص ١٧٤ .

(٢) بَعَجَ بطنَه بالسكين يبعَجُه بعجاً ، فهو مَبْعُوج وبعيج ، وبَعَّجَه : شَقَّه فزال مافيه من موضعه وبدا متعلقاً . لسان العرب : جـ ٢ ص ٢١٤ .

الحارث بن عبد المطلب ، آخذ بزمامها وهو يقول :

«أَنَـا النَّبِيُّ لا كَـذِبْ أَنَا ٱبنُ عَبْـدِ المُطَّلِبْ»

«اللهم نَزِّل نصرك» ، قال البراء : ولقد كنا إذا حَمِيَ البـأسُ نتَّقي برسول الله ﷺ ، وإن الشجاع الذي يُحاذي به .

أبو قَتَادة الأنصَاري :

قال أبو قتادة الحارث بن رِبْعي الخزرجي السَّلمي[1] : خرجنـا مع رسول الله ﷺ عام حنين ، فلمـا التقينـا كانت للمسلمين جَوْلـة ، فرأيت رجلاً من المشركين قـد علا رجلاً من المسلمين ، فضربتُـهُ من ورائـه على حبل عاتقه بـالسَّيف فقطعتُ الـدرع ، وأقبل عليَّ فضمني ضَمّـاً شـديـداً حتى تخوَّفت ووجـدت منهـا ريـح المـوت ، ثم أدركـه المـوتُ فـأرسلني ، فدفعته ثم قتلته ، فلحقت عمر فقلت : ما بالُ الناس ؟ فقال : أمر الله .

ولما رجع الناس ، وجلس رسول الله ﷺ فقال : «من قتل قتيلاً له عليه بيِّنة فله سلبه» ، قـال أبو قتـادة : فقمت فقلت من يشهـد لي ؟ ثم جلست ، فقـال رسـول الله ﷺ مثلـه ، فقلت : من يشهـد لي ؟ ثم جلست ، فقـال رسـول الله ﷺ مثلـه ، فقلت : من يشهـد لي ؟ ثم

---

(١) أُسد الغابة : جـ ٦ ص ٢٥٠ .

جلست ، ثم قال رسول الله ﷺ مثله ، فقمت ، فقال : « مالك يا أبا قتادة ؟ » ، فأخبرته ، فقال رجل : صدق ، سَلَبه عندي فأرضِهِ مني . فقال أبو بكر : لا ها الله ، إذاً تعمدْ إلى أسَدٍ من أُسْد الله يقاتل عَنِ الله ورسوله فيعطيك سلبه ؟

فقال رسول الله ﷺ : « صدق فأعطه » ، فأعطانيه فابتعتُ به مَخْرَفاً[1] في بني سلمة ، فإنه لأوَّلُ مال تأثَّلْته[2] في الإسلام[3] .

شيبةُ بن عثمان :

أسلم شيبة[4] عام الفتح ، وكان يحدث عن سبب إسلامه فيقول : ما رأيت أعجب مما كنا فيه من لزوم بعض ما عليه آباؤنا من الضلالات ، ولما كان عام الفتح ودخل رسول الله ﷺ مكة ، ثم صار إلى حرب هوازن ، قلت : أسير مع قريش إلى هوازن بحنين (والله ما أخرجني إسلامٌ ولا معرفة به) ، إن اختلطوا أن أُصيب من محمد غرة

---

(١) المَخْرَفُ : القطعة الصغيرة من النخل ، وقيل هي جماعة النخل ما بلغت ، والمَخْرَفَة : سِكّة بين صَفَّيْن من نخل يخترف من أيها شاء ، أي يجتني ، وجمعها المَخَارِف ، والمخرف أيضاً الحائط من النخل . لسان العرب : جـ ٩ ص ٦٤ .

(٢) تأثّل مالاً : اكتسبه واتخذه وثَمَّره .

(٣) الاكتفاء : جـ ١ ص ١٤٥ / أ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٣٢٨ و ٣٢٩ ، السِّيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٦٢٣ ، السِّيرة الحلبية : جـ ٣ ص ١٢٨ .

(٤) وهو شيبة بن أبي طلحة ، أو شيبة الحجبي « حاجب البيت الحرام » . السِّيرة الحلبية : جـ ٣ ص ١٢٧ و ١٢٨ .

فأقتله فأكون أنا الذي قمت بثأر قريش كلها ، (ذكرت أبي وعمي وقَتْل علي وحمزة إياهما ، فقلت : اليوم أُدرك ثأري من رسول الله ﷺ) ، وقلت : لو لم يبق من العرب والعجم أحد إلا اتبع محمداً ما تبعته ، لا يزداد ذلك الأمر عندي إلاَّ شدة ، فلما اختلط الناس يوم حنين ونزل ﷺ عن بغلته ، أَصلت السيف ودنوت منه أُريد الذي أُريد منه ، فإذا بالعباس بن عبد المطلب قائم عليه درع بيضاء كأَنها الفضة ، ينكشف عنها العَجاج ، فقلت : عمه ولن يخذله ، ثم جئته عن يساره فإذا أنا بأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، فقلت : ابن عمه ولن يخذله ، ثم جئته من خلفه فلم يبق إلاّ أن أساوره سَورةً بالسيف(١) ، إذ رُفِعَ شُواظ من نار بيني وبينه ، كأنه برق ، فخفت أن يَمْحَشني(٢) ، فوضعت يدي على بصري ومشيت القهقرى . لقد حال بيني وبينه خندق من نار ، وسور من حديد . فالتفت إليَّ رسول الله ﷺ وتبسَّم ، وعرفَ الذي أُريد ، فناداني : « يا شيبة ، اُدن مني ، فدنوت منه ، فمسح صدري ثم قال : « اللهم أعذه من الشيطان ، اللهم أذهب عنه الشيطان » ، قال شيبة : فوالله لهو في الساعة صار أحب إلي من سمعي وبصري ، وأذهب الله ما كان فيَّ ، ثم قال : « اُدن فقاتل ، يا شيب ، قاتل الكفار » فقعدت أمامه أضرب بسيفي ، والله أعلم أني أحب أن أَقيه بنفسي وكل شيء ، ولو

---

(١) السَّوْرَةُ : الوثبة ، وقد سُرت إليه أي وثبتُ إليه . لسان العرب : جـ ٤ ص ٣٨٥ .

(٢) امتحش الخبز : احترق ، ومحشته النارُ وامتحشته : أحرقته . لسان العرب : جـ ٦ ص ٣٤٤ .

كان أبي حياً ولقيته تلك الساعة لأوقعت السيف به ، فجعلتُ ألزمه فيمن لزمه ، أي ثبت معه يوم حنين .

ولما انقضى القتال ، ورجع رسول الله ﷺ إلى معسكره فدخل خباءه ، ودخلت عليه مادخل عليه غيري ، حُبّاً لرؤية وجهه ﷺ وسروراً به ، فقال : « ياشيبة[1] ، الذي أراد الله خير مما أردت لنفسك » . ثم حدَّثني بكل ماأضمرته في نفسي مما لم أذكره لأحد قط ، فقلت : إني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أنَّك رسول الله ، ثم قلت له : استغفر لي ، فقال ﷺ : « غفر الله لك[2] » .



فخر مالك يوم حُنين :

وقال مالك بن عوف النَّصْري قائد هوازن يوم القتال ، وهو في حومة الوغى :

أقدم مُحاجُ إنه يومٌ نُكُرْ مثلي على مثلك يَحْمى وَيكُرْ

---

(١) في عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٩١ : « ياشيب » .

(٢) لخبر شيبة راجع الاكتفاء : جـ ١ ص ١٤٤ / ب ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٩١ ، السِّيرة النبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٦٣٢ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٣٣٣ ، السِّيرة الحلبيَّة : جـ ٣ ص ١٢٧ و ١٢٨ ، ابن هشام : جـ ٤ ص ٦٥ ، الروض الأُنف : جـ ٤ ص ١٤١ .

إذا أُضيعَ الصَّفُّ يوماً والدُّبُرْ ... ثم احزألَّت زُمَرٌ بعد زُمَرْ[1]

كتائبٌ يكلُّ فيهنّ البَصَرْ ... قد أطْعن الطَّعْنَة تَقْذِي بالسُّبُرْ[2]

حين يُذَمُّ المستكنُّ المنجَحِرْ ... وأطعنُ النَّجلاءَ تَعْوي وتَهِرْ[3]

لها من الجوف رَشاش مُنْهَمِرْ ... تَفهق تاراتٍ وحيناً تَنْفجِرْ[4]

وثعلبُ العاملِ فيها منكسِرْ ... يا زَيْدُ يابنَ هَمْهَم أين تَفِرْ[5]

قد أنفذ الضِّرْسُ[6] وقد طال العُمُرْ ... قد علم البيضُ الطويلات الخُمُرْ

أنِّيَ في أمثالها غيرُ غَمِرْ ... إذ تُخْرَجُ الحاصِنُ من تحت السُّتُرْ[7]

وقال مالك بن عوف النَّصْري أيضاً بعدما أسلم ، يصف أصحابه المنهزمين :

---

(١) احزألَّت : ارتفعت ، والزُمَرُ : الجماعات . ومحاج في البيت الأول : فَرَسُ مالك بن عوف النَّصْري .

(٢) تقذي : تقذف ، والسُّبُر : جمع سبار . وفي الروض الأُنف : جـ ٤ ص ١٤١ : جمع سابر وهو الفتيل الذي يسبر به الجرح ، أي : يخبر .

(٣) المنجحر : المستتر ، والنجلاء : الطعنة المتَّسِعة ، وتعوي وتهر : ينزف منها الدم بصوت .

(٤) طعنة فاهقة : تَفْهَقُ بالدم ، أي يتصبَّب الدم منها ، وانفهقت الطعنة : اتسعت . لسان العرب : جـ ١٠ ص ٣١٤ .

(٥) الثعلب : مادخل من عصا الرمح في جبة السِّنان ، والعامل : أعلى الرمح .

(٦) في السِّيرة النبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٦٣٤ : « قد نفد الضِّرس » ، وضَرَّسَتْه الحُروبُ تَضْريساً أي جَرَّبته وأحكمته ، والرجل مُضَرَّس أي قد جَرَّب الأُمور ، وضَرِسَ بنو فلان بالحرب إذا لم ينتهوا حتى يقاتلوا . لسان العرب : جـ ٦ ص ١١٨ .

(٧) الحاصن : امرأة حَصَانٌ وحاصِنٌ وهي العفيفة . لسان العرب : جـ ١٣ ص ١٢٠ .

أَذكُرْ مَسِيرَهُمُ وَالنَّـــاسُ كُلُّهُم ... ومـالـكٌ فوقَـه الرايـاتُ تَخْتَفِـقُ

ومـالـكٌ مـالـك مـافـوقـه أحَـدٌ ... يـومَ حُنَينٍ عليـه التَّـاجُ يـأتَلِـقُ

حتى لَقُـوا النـاسَ حين البـأْسُ يَقْـدُمُهُمْ

عليهم البَيْضُ والأبـــدان والـــدَّرقُ(١)

فضاربوا النَّاسَ حتى لم يروا أحداً ... حَوْلَ النَّبيِّ وحتى جَنَّـهُ الغَسَـقُ(٢)

حتى تَنَـــزَّلَ جبريـــلٌ بِنَصرِهُمُ ... فـالقـومُ منهـزمٌ منـا ومُعْتلـقُ(٣)

منّـا ولـو غيرُ جبريـلٍ يقـاتلنـا ... لمنَّعَتْنـا إذاً أسيـافُنَـا الفَلَـقُ

وقـد وفى عمرُ الفـاروق إذ هُزِمـوا ... بطعنـةٍ كان منهـا سَرْجُـه العَلِـقُ



انْهِزَامُ هَوَازِنَ وَثَقيفُ :

ولـمـا هُـزِمِ المشركـون ، وأمكن الله رسـولـه منهم ، قـالـت امرأة من المسلمين :

---

(١) البيض : جمع بيضة وهي المغفر (الخوذة) . والأبـدان جمع بـدن وهي الـدرع . والـدَّرق : الواحدة دَرَقة : الحجفة وهي الترس من الجلود . لسان العرب : جـ ١٠ ص ٩٥ .

(٢) جَنَّه : لَفَّه وغَطَّاه ، والغسق الليل في أول ظلمته ، ويعني هنا ظلمة الغبار .

(٣) الإعـلاق : وقـوع الصيـد في الحبـل ، يقـال : نصب لـه فـأعلقـه . لسـان العرب : جـ ١٠ ص ٢٦١ .

قَـدْ غَلَبَتْ خَيْلُ اللهِ خَيْلَ الـلاَّتِ[1]   وَخَيْلُـــهُ أَحَــقُّ بِــالثَّبَــاتِ[2]

وكان انهزامهم فوضوياً مضطرباً ، فاستمر القتلُ من ثقيف في بني مالك ، فَقُتِلَ منهم سبعون رجلاً تحت رايتهم ، وكانت مع ذي الخِمَار ، فلما قُتِل أخذها عثمان بن عبد الله بن ربيعة بن الحارث بن حبيب ، فقاتل بها حتى قُتِل ، ولما بلغ رسول الله ﷺ قتل عثمان قال : « أبعده الله فإنه كان يبغض قريشاً »[3] .

وكانت راية الأحلاف مع قارب بن الأسود ، فلما انهزم الناس أسند رايته إلى شجرة وهرب ، هو وبنو عمه وقومه ، فلم يُقْتَل من الأحلاف إلاّ رجلان : رجل من بني غِيَرة يقال له وهب ، وآخر من كُنَّة[4] يقال

---

(١) خيل الله ، مثل : بيت الله ، وناقة الله ، هذه إضافة تشريف ، والمراد : « فرسان خيل الله » ، راجع المجتنى ص ٢٥ . واللاّت : ربَّةُ ثقيف - وسير معنا في نهاية هذا الكتاب مصيرها - ، أما هوازن فقد عبدت : جهاراً : صنماً كان لهم بعكاظ ، وكانوا يعظمون أيضاً : ذا الخلصة . معجم قبائل العرب : جـ ٣ ص ١٢٣٢ .

(٢) الاكتفاء : جـ ١ ص ١٤٥ / ب ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٩٢ ، الطبري : جـ ٣ ص ٧٧ ، ابن خلدون : جـ ٢ ص ٤٧ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٣٣٥ ، السِّيرة النبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٦٣٥ ، ابن هشام : جـ ٤ ص ٦٩ .

(٣) الاكتفاء : جـ ١ ص ١٤٥ / ب ، الطبري : جـ ٣ ص ٧٧ .

(٤) في السِّيرة النبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٦٣٦ ، وفي ابن هشام : جـ ٤ ص ٦٩ : « من كُبَّة » ، وما أثبتناه أعلاه ماأورد الطبري : جـ ٣ ص ٧٨ .

لـه الجُلاَح ، فقـال رسول الله ﷺ حين بلغـه قتل الجُلاَح : « قُتِل اليـوم سَيِّدُ شباب ثقيف إلاَّ ما كان من ابن هُنَيْدة[1] » .

وقـال عبـاس بن مِرْداس يـذكر قـارب بن الأسود وفرارَه من بني أبيه ، وذا الخِمَار وحَبْسه نفسه وقومَهُ للموت :

ألا مَنْ مبلـغ غَيْـلان[2] عَنِّي ... وسـوف إخـالُ يـأتيـه الخبيرُ

وعُروةَ[3] إنمـا أُهْـدِي جـوابـاً ... وقـولاً غيرَ قـولكمـا يَسِيرُ

بـأنَّ محمـداً عَبْـدٌ رسـول ... لِرَبٍّ لا يَضِـلُّ ولا يجـورُ

وجـدنـاه نبيّـاً مثـلَ مـوسى ... فكلُّ فتىً يُخَـايِرُه[4] مَخِيرُ

وبئسَ الأَمرُ أَمرُ بني قَسِيٍّ ... بـوَجٍّ[5] إذْ تُقُسِّمت الأُمـورُ

أَضـاعـوا أَمْرَهم ولكلِّ قـومٍ ... أَميرٌ والـدوائرُ قـد تَـدُورُ

فجئنـا أُسْـدَ غـابـاتٍ إليهم ... جنـودُ اللهِ ظـاهرةً[6] تَسِيرُ

نـؤمُّ الجمـعَ جمـعَ بني قَسِيٍّ ... على حَنَـق نكاد لَـهُ نَطيرُ

---

(١) ابن هنيدة : الحارث بن أُوَيْس . وفي الطبري : جـ ٣ ص ٧٨ : الحارث بن أوْس .

(٢) غيلان بن سلمة من وجهاء ثقيف .

(٣) عروة بن مسعود من وجهاء وعظماء ثقيف . وسيمر ذكره مع غيلان عند الحديث عن حصار الطائف .

(٤) يخايره : يزعم أنه خير منه ، ومخير : مغلوب في مخايرته .

(٥) بنو قسي : ثقيف ، ووج : واد بالطائف ، وقيل الطائف ذاتها .

(٦) في السِّيرة النبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٦٣٦ : « جنودُ الله ضاحيةً تسير » .

وَأُقسمُ لَوْ هُمُ مكثوا لَسِرْنا إليهم بالجنودِ ولم يَغورُوا[1]

فكنّا أُسْدَ لِيَّةٍ[2] ثَمَّ حتى أبحناها وأُسْلِمَتِ النُّصورُ[3]

ويومٌ كان قبلُ لَدَى حنينٍ فأَقلع والدماءُ به تمورُ

مِنَ الأَيّام لم تَسمع كيومٍ ولم يسمع به قوم ذُكُورُ

قتلنا في الغُبار بني حُطَيْطٍ على راياتها والخيلُ زُورُ[4]

ولم يَكُ ذو الخِمَار رئيسَ قومٍ لهم عقلٌ يعاقبُ أو مَكيرُ[5]

أقام بهم على سَنَنِ المَنايا وقد بانت لمُبْصِرها الأُمورُ

فأفلتَ من نجا منهم جَريضاً[6] وقُتِّل منهمُ بَشَرٌ كثيرُ

ولا يُغني الأُمورَ أَخُو التَّواني ولا الغَلِقُ الصُّرَيِّرةُ الحَصُورُ[7]

أَحانَهم وحانَ[8] ومَلَّكُوهُ أُمورَهُمُ وأَفْلَتَتِ الصُّقورُ

---

(١) لم يغوروا : لم يذهبوا ، وفي لسان العرب : جـ ٥ ص ٣٤ : غار الماءُ غوراً : ذهب في الأرض وسَفَلَ فيها ، غارَ الماءُ وغَوَّرَ : ذهب في العيون .

(٢) لية : موضع قريب من الطائف .

(٣) النصور : رهط مالك بن عوف النَّصْري ، بنو نصر من هوازن .

(٤) زور : يعني مائلة .

(٥) المكير : الدهاء .

(٦) جريض وجريص ، من يغص بريقه ، والجمع جرضى . وقيل : « الحريض » ، والحريض : المشرف على الهلاك .

(٧) الغَلق : ضيق الخُلُق ، قليل الحيلة ، والصُّرَيِّرة : تصغير الصرورة ، وهو الذي لم يتزوَّج ، والحَصور : الذي لا يأتي النساء .

(٨) حانَ الرجل : هَلَك . لسان العرب : جـ ١٣ ص ١٣٦ .

بنو عوف تَميح[1] بهم جيادٌ | أُهين لها الفَصَافِصُ[2] والشَّعيرُ
فلولا قاربٌ[3] وبنو أبيه | تُقُسِّمت المزارعُ والقصورُ
ولكنّ الرياسة عُمِّموها | على يُمْنٍ أَشار به المشيرُ
أطاعوا قارباً ولهم جُدُودٌ | وأحلام إلى عزٍّ تصيرُ
فإن يُهدَوا إلى الإسلام يُلْفَوا | أُنوفَ الناس ماسَمَر السميرُ
فإن لم يُسلموا فَهُمُ أذانٌ | بحربِ الله ليس لهم نَصيرُ
كما حكَّت بني سعد وجرَّت | برهطِ بني غَزِيَّة عَنْقَفيرُ[4]
كأن بني معاوية بن بكرٍ | إلى الإسلام ضائنةٌ تَخُورُ[5]
فقلنا أسلموا إنا أخوكم | وقد برئت من الإحَنِ[6] الصدورُ
كأن القوم إذ جاؤوا إلينا | من البغضاء بعد السِّلم عُورُ[7]



(١) تميح : تمشي مشياً مستوياً .

(٢) الفصافص : جمع فصفصة وهي البقلة التي تأكلها الدواب .

(٣) قارب بن الأسود حامل راية الأحلاف ، والذي فرَّ ببني عمه وقومه .

(٤) العنقفير : الداهية .

(٥) ضائنة : لَيِّنة طائعة . لسان العرب : جـ ١٣ ص ٢٥٢ . ويخور : يصيح وينادي ، أو من فَرَس خَوَّارُ العِنان : سهل المَعْطِفِ لَيِّنه ، وهذا يناسب ماسبق : « ضائنة : أي ليِّنة » . راجع لسان العرب : جـ ٤ ص ٢٦٣ .

(٦) في اللسان : الإحْنةُ : الحقد في الصدر . جـ ١٣ ص ٨ .

(٧) القصيدة في : السِّيرة النبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٦٣٦ و ٦٣٧ ، ابن هشام : جـ ٤ ص ٧٠ و ٧١ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٣٣٥ .

هذا الزُّبَيْرُ بنُ العَوَّامُ :

ولما انهزمت هوازن ، وقف زعيمها وقائدها مالك بن عوف النَّصْري في فوارس من قومه على ثَنيّة من الطريق ، وقال لمن معه : قفوا حتى تجوز وتمضي ضعفاؤكم وتلحق أُخراكم ، فوقف هنالك حتى مضى من كان لحق بهم من منهزمة الناس .

وطلعت خيل ، ومالك وأصحابه في موقعهم يحمون ضعفاءهم وينتظرون آخر منهزمة الناس ، فقال لأصحابه : ماذا ترون ؟ قالوا : نرى قوماً واضعي رماحهم بين آذان خيلهم ، طويلة بَوادُّهم[1] ، فقال : هؤلاء بنو سُلَيْم ، ولا بأس عليكم منهم ، فلما أقبلوا سلكوا بطن الوادي ، ثم طلعت خيلٌ أُخرى تتبعها ، فقال لأصحابه : ماذا ترون ؟ قالوا : نرى قوماً عارضي رماحهم أغفالاً[2] على خيلهم ، فقال : هؤلاء الأوس والخزرج ، ولا بأس عليكم منهم ، فلما انتهوا إلى أصل الثَّنيَّة سلكوا طريق بني سليم . ثم طلع فارس ، فقال لأصحابه : ماذا ترون ؟ فقالوا : نرى فارساً طويل الباد[3] واضعاً رمحه على عاتقه ، عاصباً رأسه بملاءة حمراء ، قال : هذا الزبير بن العوام ، وأُقسم باللات ليخالطنكم فاثبتوا

---

(١) البواد : جمع باد وهو بطن الفخذ .

(٢) الغُفْلُ : المُقَيَّد ، والجمع أَغْفال ، وبلاد أَغْفالٌ : لاأعلام فيها يُهتدى بها . لسان العرب : جـ ١١ ص ٤٩٨ .

(٣) أي : نرى فارساً طويل المظهر .

لـه ، فلمـا انتهى الزبير إلى أصل الثَّنيَّـة أبصر القومَ فصمـد لهم ، فلم يـزل يُطاعنهم حتى أزاحهم عنها[1] .

ٱلغَنَائِمُ :

وأمر رسـول الله ﷺ بـالغنـائم فجمعت ، وكانت : من السَّبي ستـة آلاف رأس ، والإبـل أربعــة وعشرين ألف بعير، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة ، وأربعة آلاف أُوقية فضة[2] . وأمر ﷺ أن تساق إلى الجِعْرانـة فتحبس هناك ، وملئت عُرُش[3] مكة منهم .

قال ابن إسحـاق : وجعل رسولُ الله ﷺ على الغنـائم : مسعودَ بن عمرو الغفاري[4] .

من آداب الجهاد في الإسلام :

«إن رســول الله ينهــاك أن تقتــل وليـــداً أو امرأة أو عسيفاً» :

ومرَّ رسول الله ﷺ يوم حنين بـامرأة قتلهـا خـالـد بن الـوليـد ،

---

(١) الاكتفاء : جـ ١ ص ١٤٦ / أ ، البداية والنهايـة : جـ ٤ ص ٣٣٦ ، الطبري : جـ ٣ ص ٨٠ ، السِّيرة النبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٦٣٧ و ٦٣٨ .

(٢) ابن سعد : جـ ٢ ص ١٥٢ ، السِّيرة الحلبيَّـة : جـ ٣ ص ١٣٦ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٩٣ ، الطبري : جـ ٣ ص ٨٦ .

(٣) العُرُش : الخيام والبيوت التي يستظل بها .

(٤) البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٣٣٧ ، السِّيرة النبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٦٣٨ .

والناس مجتمعون عليها، مما يدل على أن هذا الحادث مرفوض ومستغرب ومستهجن نادر، وعلم رسول الله ﷺ بذلك، فقال لبعض الصحابة: «أدرك خالداً فقل له: إن رسول الله ينهاك أن تقتل وليداً أو امرأة أو عَسِيفاً[1]».

وقال ﷺ لما وقف عليها: «ما كانت هذه لتقاتل!»، ونهى عن قتل الذُّرِّيَّة[2].

يقول السهيلي: وهذا ـ هذا الخلق وهذا السلوك ـ منتزع من كتاب الله تعالى، لأنه يقول: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾[3]، فأين حضارة القرن العشرين من هذا الخلق، وهذا المبدأ؟! وما أحوج العالم اليوم وقد تقدَّمت وتطوَّرت وسائل الفتك والقتل إلى خلق قويم يطور نفسه، ويتقدَّم بروحه نحو الفضائل والإنسانية، عندها يبقى التقدُّم العلمي، وهو ضرورة، ولكن الصاروخ مثلاً، بدل أن يكون صاروخ دمار، يكون صاروخ إعمار، وعندها ينقل الإسلام بما احتوته مبادئه وأخلاقه العالَمَ من جحيم نووي، إلى فردوسه ونعيمه الأُخوي.

---

(١) العَسِيف: الأجير، الروض الأنف: جـ ٤ ص ١٤٣، الكامل في التاريخ: جـ ٢ ص ١٨٠.

(٢) ابن سعد: جـ ٢ ص ١٥١، السِّيرة النبوية لابن كثير: جـ ٣ ص ١٢٨، ابن هشام: جـ ٤ ص ٧٥، السِّيرة النبويَّة والآثار المحمديَّة: جـ ٢ ص ٣٥٠.

(٣) سورة البقرة ٢ / ١٩٠.

سرية أوطاس

☆ « اللّهم اغفر لأبي عـامر
واجعله من أعْلَى أُمَّتي في الجَنَّة » .
رسول الله ﷺ

سَبَبُهـا : ولمـا انهـزمت هـوازن ، ذهبت فرقـةٌ منهم فيهم قـائـدهم وأميرهم مـالـك بن عوف النَّصْري ، فلجؤوا إلى الطـائف فتحصَّنوا بهـا ، وسـارت فرقـة منهم فعسكروا بمكان يقـال لـه أَوْطَـاس[1] ، فبعث إليهم رسول الله ﷺ سريَّةً من أصحابـه ، عليهم أبو عـامر الأشعري ، فقـاتلهم وحمـل أبـو عـامر على بعضهم فقتـل منهم من قتـل ، وهـو يـدعـوه إلى الإسلام ، ويقول : اللهم اشهد عليه .

ثم رمى سلمة بن دريد أبا عامر الأشعري بسهم فـأصـاب ركبتـه ، وقال :

---

(١) أوْطَاس : واد في ديار هوازن . معجم البلدان : جـ ١ ص ٢٨١ .

إن تَسْأَلُوا عَنِّي فَإِنِّي سَلَمَهْ ... ٱبنُ سَمَادِيرَ لِمَنْ تَوَسَّمَهْ[1]

أَضْرِبُ بِالسَّيْفِ رُؤوسَ المُسْلِمَهْ[2]

فحمل على أبي عامر، وحمل عليه أبو عامر وهو يدعوه إلى الإسلام، ويقول: اللهم اشهد عليه، فقال: اللهم لا تشهد عليَّ، فكفَّ عنه أبو عامر فأفلت فأسلم بعد فحسن إسلامه، فكان رسول الله ﷺ إذا رآه قال: «هذا شَرِيدُ أبي عامر».

ورمى أبا عامر أَخَوَان هما: العلاءُ وأَوْفى ابنا الحارث من بني جُشَم بن معاوية، فأصاب أحدهما قلبه، والآخر ركبته فقتلاه، وَوَلِيَ الناسَ أبو موسى الأشعري، فحمل عليهما فقتلهما، فقال رجل من بني جُشَم بن معاوية يرثيهما:

إنَّ الرَّزِيَّةَ قَتْلُ العَلا ... ءِ وَأَوْفى جميعاً ولم يُسْنَدا

هُمَا القَاتِلانِ أَبا عَامِرٍ ... وَقَد كان داهِيَةً أَرْبَدا[3]

---

(١) السمادير: ضعف البصر، أو شيء يتراءى للإنسان من ضعف بصره، وفي الطبري: جـ ٣ ص ٨٠: وسمادير أم سلمة فانتمى إليها.

(٢) لأحداث أوطاس: الاكتفاء: جـ ١ ص ١٤٦ / أ، السِّيرة النبويَّة لابن كثير: جـ ٣ ص ٦٤٠، ابن سعد: جـ ٢ ص ١٥٢، ابن خلدون: جـ ٢ ص ٤٧، السِّيرة الحلبيَّة: جـ ٣ ص ١٣٠، البداية والنهاية: جـ ٤ ص ٣٣٧، عيون الأثر: جـ ٢ ص ١٩٢، الطبري: جـ ٣ ص ٧٩ و ٨٠، ابن هشام: جـ ٤ ص ٧٣.

(٣) الأربد: الليث، أو الحيَّة الخبيثة.

همـــا تَرَكاه لـــــدى مَعْركٍ   كأنَّ على عِطْفِـــهِ مُجْسَـــدا[1]
فلم يَرَ في النـــــاسِ مِثْلَيْهما   أَقــلّ عِثــاراً وَأَرقَى يـــدا

أبو مُوسَى الأَشْعَرِيّ :

يقول أبو مـوسى الأشعري : انتهيت إلى أبي عـامر[2] ، فقلت : يـا عم مَنْ رماك ؟ فأشار إلى رجل وقال : ذاك قاتلي الذي رمـاني ، فقصـدت له فلحقتـه ، فلمـا رآني ولّى فـاتبعتـه وجعلت أقول لـه : ألا تستحي ألاَّ تَثْبُت ؟ فكرَّ، فالتقيت أنا وهو، فاختلفنا ضربتين بالسيف فقتلتـه ، ثم قلت لأبي عامر : قتل الله صـاحبـك ، قـال : انتزعْ هـذا السهم ، فنزعتـه فنزا[3] منه المـاء ، قـال : يـابن أخي ، انطلق إلى رسول الله فـأقرِئْـهُ مني السلام ، وقل له : يقول لك : استغفر لي .

ولما أعلم أبو موسى رسولَ الله ﷺ بما قـالـه أبو عـامر قبل وفـاتـه : قال ﷺ : « اللّهم اغفر لِعُبَيْد أبي عامر ، اللّهم اجعلـه يوم القيـامـة فوقَ

---

(١) المجسد : الثوب المصبوغ بالزعفران .

(٢) اسم أبي مـوسى : عبـد الله بن قيس بن سُلَيم بن حَضَّـار بن الأشعر ، واسم الأشعر « نبت » ، وأمُه ظَبْية بنت وهب . أُسد الغابة : جـ ٣ ص ٣٦٧ . واسم أبي عامر : عُبَيْد بن وَهَب ، روى عنه ابنه عامر ، وابن أخيه أبو موسى الأشعري . أُسد الغابة : جـ ٣ ص ٥٤٩ .

(٣) نُزِيَ دمُه ونُزِف إذا جَرى ولم ينقطع . لسان العرب : جـ ١٥ ص ٣٢٠ .

كثير من خلقك » ، فقال أبو موسى : ولي فاستغفر ، فقال ﷺ : « اللّهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه ، وأدخله يوم القيامة مُدْخَلاً كريماً » ، « اللهم اغفر لأبي عامر ، واجعله من أعْلَى أُمَّتي في الجنَّة »[1] .

قتل دُرَيْد بن الصِّمَّة :

وأدرك ربيعةُ بن رُفَيْع بن أَهْبَان السُّلَمي[2] دريدَ بن الصِّمَّة ، فأخذ بخطام جَمَلِهِ ، وهو يظن أنه امرأة ، وذلك أنه في شِجَار له ، فإذا هو رجل ، فأناخ به ، وإذا بشيخ كبير ، وإذا هو دريد بن الصمة ولا يعرفه ربيعة السُّلَمي ، فقال له دريد : ماذا تريد بي ؟ قال : أقتلك ، قال : ومن أنت ؟ قال : أنا ربيعة بن رُفَيع السُّلَمي ، ثم ضربه بسيفه فلم يُغْنِ شيئاً ، قال دريد : بئسما سَلَّحَتْك أُمك ! خذ سيفي هذا من مؤخر رَحْلي في الشِّجَار ، ثم اضرب به وارفع عن العظام واخفض عن الدِّماغ ، فإني كذلك كنت أضرب الرجال ، ثم إذا أتيت أُمَّك فأخبرها أنك قتلت دريد بن الصمة ، فربَّ يومٍ والله قد منعت فيه نساءَك[3] !

---

(١) الاكتفاء : جـ ١ ص ١٤٥ / ب ، الطبري : جـ ٣ ص ٨٠ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٩٣ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٣٣٩ ، السِّيرة النبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٦٤٣ ، ابن سعد : جـ ٢ ص ١٥٢ .

(٢) كان يقال له : ابن الدُّغُنَّة ، وهي أُمه فغلبت عليه ، ويقال اسمها لدغة (كما في الطبري : جـ ٣ ص ٧٩) ، لحياته راجع أُسد الغابة : جـ ٢ ص ٢١١ .

(٣) الاكتفاء : جـ ١ ص ١٤٥ / ب ، ابن هشام : جـ ٤ ص ٧١ ، فتوح البلدان : ص ٦٦ ، ابن خلدون : جـ ٢ ص ٤٧ ، السِّيرة الحلبيَّة : جـ ٣ ص ١٢٩ ، الطبري : جـ ٣ ص ٧٩ .

ولما ضربه ربيعة وقع وتكشَّف ، فإذا عِجَانُهُ[1] وبطون فَخِذَيْه مثل القراطيس[2] من ركوب الخيل أَعْرَاءً[3] . فلما رجع ربيعة إلى أمه أخبرها بقتله إياه ، فقالت : أما والله لقد أعتق أُمهات لك ثلاثاً ، ألا تكرَّمت عن قتله لما أخبرك بمنعه علينا ، فقال : ما كنت لأتكرم عن رضا الله ورسوله ، لقد اعتبره ربيعة مقاتلاً اشترك في كل مراحل المعركة توجيهاً وخطةً وروحاً معنويَّة .

عَمْرَةُ بنت دُرَيد ترثي أَباها :

ورثت عمرة بنت دريد أباها ، فمن ذلك قولها :

لعمرك ما خشيتُ على دُرَيْدٍ ... ببطنِ سُمَيْرةٍ جيش العناق[4]

جزى عنه الإلهُ بني سُلَيْم ... وعقَّتهم بما فعلوا عَقاقِ

وأسقانا إذا قدنا إليهم ... دِماءَ خيارِهم عند التَّلاقي

فربَّ عظيمةٍ دافعت عنهم ... وقد بلغت نفوسُهُمُ التراقي[5]

---

(١) العجان : مابين القُبُل والدُّبُر .

(٢) في الطبري : جـ ٣ ص ٧٩ : مثل القِرْطاس ، وهو نوع من برود مصر ، والصحيفة التي يكتب فيها .

(٣) أعراء : جمع عُرْي ، وهو الفرس لاسرج له .

(٤) سُمَيْرة : واد قرب حنين ، والعناق : الأمر الشديد .

(٥) التراقي : جمع تَرْقُوة : الحَلْق ، والتَّرْقُوتَان : العظمان المشرفان بين ثُغْرة النحر والعاتق ، وقيل : التَّرْقُوة : هي عظم وصل بين ثُغرة النحر والعاتق من الجانبين . لسان العرب : جـ ١٠ ص ٣٢ .

ورب كريمـــــة أعتقت منهم وأُخرى قـد فككت من الـوَثـاقِ
ورب مُنَــــوَّهٍ بـــــل مِنْ سُلَيمٍ أجبت وقـد دعـاك بـلا رَمـاقِ[1]
فكان جـزاؤنـا منهم عُقُـوقـاً وَهَمّـاً مـاع منـه مُـخُّ سَـاقي
عفت آثـار خيلـك بعـد أين بـذي بقر إلى فَيْفِ النُّهـاقِ[2]

وقالت عمرة أيضاً :

قالوا قَتَلْنا دُرَيداً قُلْتُ قد صدقوا فظلَّ دمعي على السِّربال يَنْحدِرُ[3]
لـولا الـذي قهرَ الأقـوامَ كُلَّهم رأت سُلَيم وكعبٌ كيف يَـأْتَمِرُ
إذن لَصَبَّحهم غِبّـاً وَظـاهرةً حيث استقرَّتْ نَواهم جَحْفلٌ ذَفِرُ[4]



من استشهد يوم حنين وبسريَّة أَوْطَاس :

ـ أيمن بن أُم أيمن مولى رسول الله ﷺ ، وهو أيمن بن عبيد بن زيد ، أخو أسامة بن زيد لأمه .

---

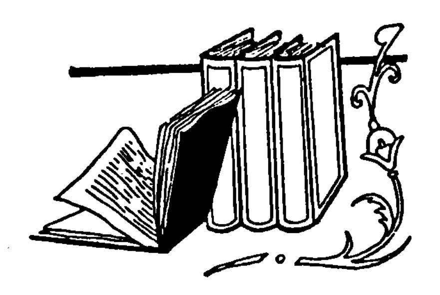
(١) الرماق : بقية الحياة .
(٢) ذو بقر : موضع ، فيف : قفر ، النهاق : موضع .
(٣) السّربال : القميص .
(٤) غِبّاً : يوماً بعد يوم ، والظاهرة : أن يصحبهم كل يوم ، والذفر : المتغير الرائحة من صدأ الحديد ، والجحفل : الجيش الكثيف .

- زيد بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد ، جمح به فرسه الذي يقال له الجناح فمات .

- سراقة بن الحارث بن عدي الأنصاري .

- أبو عامر الأشعري ، أمير سريَّة أوطاس .

- رُقَيْم بن ثعلبة بن زيد بن لَوْذان[1] .



(١) البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٣٤٠ ، ابن خلدون : جـ ٢ ص ٤٧ ، الطبري : جـ ٣ ص ٨١ ، ابن هشام : جـ ٤ ص ٧٦ ، الطبقات الكبرى لابن سعد : جـ ٢ ص ١٥٢ ، السِّيرة النبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٦٤٠ .

من حنين إلى الطائف

☆ يا رسول الله ، ادْعُ على ثقيف ، فقال ﷺ : « اللّهم اهدهم واكفنا مَؤُنتهم ، اللّهم اهدِ ثقيفاً وائتِ بهم » .

وبعدما فرغ رسول الله ﷺ من حنين ، سار إلى الطائف ، فقال كعب بن مالك في ذلك :

قضينا من تهامَةَ كُلَّ رَيْبٍ ... وخيبرَ ثم أَجْمَمْنَا السُّيُوفَا[1]
نُخَيِّرها ولو نَطَقَتْ لَقَالَتْ ... قَوَاطِعُهُنَّ : دَوْساً أو ثَقِيفَا[2]
فلستُ لحاضِنٍ إن لم تَروها ... بسَاحَةِ داركم مِنَّا أُلُوفَا
وننتزِعُ العروشَ ببطن وَجٍّ ... وَتُصْبِحُ دُورُكم منكم خُلُوفَا[3]

---

(١) تِهَامَةُ : السهل الساحلي الموازي للبحر الأحمر ، وسمي الحجاز حجازاً لأنه حجز بين تهامة ونجد . معجم البلدان : جـ ٢ ص ٦٣ ، أجممنا : أجمّ : أراح .

(٢) دوس وثقيف : قبيلتان ، ودوس قبيلة من الأَزْدِ ، منها أبو هريرة الدَّوْسي . لسان العرب : جـ ٦ ص ٩٠ .

(٣) وَجٌّ : واد في الطائف ، أو الطائف ذاتها .

ويـأتيكم لنـا سَرَعـانُ خيـلٍ[1] يُغَـادِرُ خَلْفـه جمعـاً كَثِيفَـا
إذا نَـزَلـوا بِسَـاحَتِكم سَمِعْتُم لهـا مِمَّـا أَنَـاخَ بِهَـا رَجيفَـا
بـأيـديهم قـواضِبُ مُرْهَفَـاتٌ يُـزِرْنَ المصطَلينَ بهـا الحتـوفا[2]
كأمثـال العَقـائـق أخلَصَتْهـا قيـونُ الهنـد لم تُضْرَب كَتِيفـا[3]
تخَـالُ جَـدِيَّـة الأبطـالِ فيهـا غـداةَ الزحفِ جَـادِيّـاً مَـدُوفـا[4]
أجِـدَّهُمُ أليسَ لهم نصِيـحٌ منَ الأقـوامِ كَـانَ بنـا عَرِيفَـا
يُخَبِّرُهُم بِـأَنَّـا قَـدْ جَمَعْنَـا عِتَاقَ الخَيْلِ والنُّجُبَ الطُّروفَـا[5]
وَأنّـا قَـدْ أتينـاهم بِـزَحْفٍ يحيـطُ بسُور حِصْنهمُ صُفُـوفـا
رَئِيسُهُمُ النَّبِيُّ وَكانَ صُلْبـاً نقيَّ القَلْبِ مُصْطَبِراً عَـزوفـا[6]
رشيـدَ الأمرِ ذا حُكم وَعِلْمٍ وحِلْمٍ لم يكن نَـزِقـاً خَفيفَـا
نُطيـع نبيَّنـا ونُطيـع رَبّـاً هُـوَ الرحمنُ كانَ بِنَـا رَؤُوفَـا

---

(١) سَرَعانُ الخيل : أوَائِلُها . لسان العرب : جـ ٨ ص ١٥٢ .

(٢) قـواضب مرهفـات : السُّيوف القـواطـع ، والقضيب : السيف اللطيف الـدقيـق . اللِّسـان : جـ ١ ص ٦٧٩ ، والرَّهَفُ : مصـدر الشيء الرَّهيف : اللطيف الـدقيـق . اللِّسـان : جـ ٩ ص ١٢٨ ، يزرن : يحملنهم على الزيارة ، وصليته ناراً : أدخلته فيها . لسان العرب : جـ ١٤ ص ٤٦٤ ، والحتف : الموت ، وجمعه حُتُوف . لسان العرب : جـ ٩ ص ٣٨ .

(٣) العقائق : جمع عقيقة وهي شعاع البرق (هنا) ، أخلصتها : جعلتها خـالصـة أي صـافيـة مما يشوبها ، والكتيف : الضبَّة ، وهي صفيحة صغيرة . لسان العرب : جـ ٩ ص ٢٩٥ .

(٤) الجديَّـة : الـدم السـائـل ، والجـادي : الـزعفران ، والمـدوف : المبلـول . لسـان العرب : جـ ٩ ص ١٠٨ .

(٥) عَتَقَتِ الخيلُ تَعْتِقُ وعَتُقت عِتْقاً : سَبَقت فنجت ، وفَرَس عـاتِـق : سـابـق . لسـان العرب : جـ ١٠ ص ٢٣٥ . والطروف : الكرام من الخيل .

(٦) عزوف عن اللهو ، عن توافه الأُمور ، عن كل مالا يرضي الله عز وجل .

فـإن تُلقـوا إلينـا السِّلم نُقْبِـل ... ونجعلكم لنـا عَضُـداً وريفَـا[1]

وَإن تـأبـوا نُجَـاهِـدْكم ونَصْبر ... ولا يَـكُ أمرُنـا رَعِشـاً ضَعِيفَـا[2]

نُجَـالِـدُ مـا بقينـا أو تُنيبـوا ... إلى الإسـلام إذعـانـاً مُضِيفـا

نجـاهِـدُ لانبـالي مـا لَقِينـا ... أأهْلَكْنـا التِّـلادَ أم الطَّريفَـا[3]

وكم من مَعْشرٍ أَلَبـوا علينـا ... صميمَ الجِـذْم منهم والحليفَـا[4]

أتَـوْنـا لا يرون لهم كفـاءً ... فجدَّعْنـا المسـامعَ والأُنـوفـا[5]

بكلِّ مُهَنَّـدٍ لَيْنٍ صَقيـلٍ ... نَسُـوقهُمُ بِهَـا سَـوْقـاً عنيفَـا

لأمرِ اللهِ وَالإسـلام حَتى ... يقـومَ الـدينُ معتـدلاً حَنيفَـا

وتُنْسَى الـلاَّتُ والعُـزَّى وَودّ ... ونَسْلبهـا القَلائِـدَ والشُّنُوفَـا[6]

فـأمْسَـوا قـد أقرُّوا واطمأنـوا ... وَمَنْ لا يَمْتَنِـع يقبـل خُسـوفَـا

فأجابه كنانة بن عبدياليل بن عمرو بن عمير الثقفي :

---

(١) وَرَفَ النبتُ والشجر يَرِفُ وَرْفاً ووَرَفاً ووريفاً ووُروفاً : تنعَّم واهتزَّ ورأيت لخضرته بهجة من ريِّه ونَعْمته . لسان العرب : جـ ٩ ص ٣٥٥ .

(٢) الرعَشُ والرُّعاشُ : الرِّعْدة . لسان العرب : جـ ٦ ص ٣٠٤ .

(٣) التلاد : القديم ، والطَّريف : الجديد ، والطَّرِيفُ والطارِفُ : المستحدث ، وهو خلاف التَّالِد والتَّليد . لسان العرب : جـ ٩ ص ٢١٤ .

(٤) الجِذْم : الأصل ، أصل الشيء . لسان العرب : جـ ١٢ ص ٨٨ .

(٥) جدع : قطع ، وهو القطع البائن في الأنف والأذن والشَّفَة واليد ونحوها . لسان العرب : جـ ٨ ص ٤١ .

(٦) اللاَّت والعُزَّى وَوُدٌّ : أسماء أصنام ، والشُّنُوفُ : ما يلبس في أعلى الأُذن ، وما يلبس في أسفلها القُرْط ، وقيل الشنف والقرط سواء . لسان العرب : جـ ٩ ص ١٨٣ .

من كان يَبْغينا يريد قتالَنَا ... فإنّا بدارٍ مَعْلَمٍ لا نَريمُهَا
وَجَدْنا بها الآباءَ من قبل ما تَرى ... وكانت لنا أطواؤُها وكرومُهَا
وقد جَرَّبتنا قبلُ عمرو بن عامر ... فأخبرها ذو رَأْيِها وحليمُها
وقد علمت - إن قالتِ الحق - أننا ... إذا ما أَتَتْ صُعْر الخدود نُقيمُها[1]
نقوِّمُهَا حتى يلين شَرِيسُهَا ... ويُعْرفَ للحقِّ المبينِ ظَلُومُها
علينا دِلاَصٌ من تُراثٍ محرَّقٍ ... كلون السَّماء زَيَّنَتْهَا نُجومُها[2]
نُرفِّعها عنا ببيضٍ صوارمٍ ... إذا جُرِّدت في غمرةٍ لا نشيمها[3]

وقال شدَّاد بن عارض الجُشَمي في مسير رسول الله ﷺ إلى الطائف :

لا تنصروا اللاَّتَ إنَّ اللهَ مُهْلِكُها ... وكيفَ يُنْصَرُ من هو ليس يَنتَصِرُ
إن التي حُرِّقت بالسُّدِّ فاشتعلت[4] ... ولم يُقاتل لدى أحجارها هَدَرُ
إنَّ الرسولَ متى يَنْزل بِلاَدَكُمُ ... يَظعَنْ وليس بها من أهلها بَشَرُ[5]

☆ ☆ ☆

(١) صَعَّرَ خَدَّه وصاعَرَه : أمالَهُ ذلاً . لسان العرب : جـ ٤ ص ٤٥٦ .
(٢) الدَّلِيصُ : البَرِيق ، والدّلاص من الدروع : اللينة ، ودرع دلاص : برّاقة ملساء لينة بيِّنة الدَّلَص . لسان العرب : جـ ٧ ص ٣٧ .
(٣) نَشَّم القوم في الأمر تنشيماً : نشبوا فيه وأخذوا فيه ، ولا يكون ذلك إلاَّ في الشر ، ونَشَّم فيه ونَشَّمه : نال منه وطعن عليه . لسان العرب : جـ ١٢ ص ٥٧٦ و ٥٧٧ .
(٤) السُّدُّ والسَّدُّ : الجبل . لسان العرب : جـ ٣ ص ٢٠٨ .
(٥) السِّيرة النبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٦٥٤ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٣٤٦ ، ابن هشام : جـ ٤ ص ٩٣ .

إلى الطَّائِف :

ولما قدم فَلُّ ثقيف الطائفَ ، أغلقوا عليهم أبوابَ المدينـة ، وتهيّؤوا للقتال سلاحاً ومؤونةً .

وسلك رسول الله ﷺ من حنين إلى الطائف على نَخْلة اليمانيـة ، ثم على قَرْن ، ثم على المُلَيْح ، ثم على بُحْرَة الرُّغاء من لِيَّة ، فابتنى بها مسجـداً فصلى فيه[1] .

وأمر رسول الله ﷺ وهو بِليَّـة[2] بحصن مـالـك بن عوف النَّصْري فَهُدِم .

ثم سلك في طريق يقـال لـه الضَّيْقـة ، فلمـا توجَّـه رسول الله ﷺ سأل عن اسمها : « ما اسم هذه الطريق ؟ » ، فقيل : الضَّيْقة ، فقال : « بل هي اليُسْرى » ، ثم خرج منها على نَخِب[3] حتى نزل تحت سِدْرة يقال لها الصادرة ، قريباً من مال رجل من ثقيف ، فأرسل إليه رسول الله ﷺ :

---

(١) وأقاد يومئذ ببُحْرة الرُّغَاء حين نزلهـا بـدم ، وهو أول دم أُقيـد بـه في الإسلام ، رجل من بني ليث قتل رجلاً من هُذَيل فقتله به . الاكتفـاء : جـ ١ ص ١٤٧ / ب ، البـدايـة والنهـايـة : جـ ٤ ص ٣٤٦ ، السِّيرة النبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٦٥٥ ، الطبري : جـ ٣ ص ٨٣ .

(٢) لِيَّة : من نواحي الطائف . معجم البلدان : جـ ٥ ص ٣٠ .

(٣) نَخِبٌ : واد من الطائف على ساعة . معجم البلدان : جـ ٥ ص ٢٧٥ .

إما أن تخرج إلينا ، وإما أن نخرب عليك حائطك ، فأبى أن يخرج
فأمر رسول الله ﷺ بإخرابه[1] .

ثم مضى ﷺ حتى نزل قريباً من الطائف ، فضرب عند أكمة هناك
عسكره ، فقُتل ناسٌ من أصحابه بالنَّبل ، وذلك لقرب المعسكر من
حائط الطائف وسورها ، فتأخَّر المسلمون إلى موضع مسجده ﷺ اليو
بالطائف ، الذي بنَتْه ثقيف بعد إسلامها ، بناه عمرو بن أُميَّة بن
وهب .

وأقبل خالد بن الوليد رضي الله عنه ونادى من يبارز، فلم يخرج
إليه أحد ، ثم كرر ذلك ، فلم يخرج إليه أحد ، ثم كرر ذلك ، فلم يخرج
إليه أحد وناداه عبد ياليل : لا ينزل إليك منا أحد ، ولكن نقيم في
حصننا فإن به من الطعام ما يكفينا سنين ، فإن أقمت حتى يذهب هذا
الطعام ، خرجنا إليك بأسيافنا جميعاً حتى نموت عن آخرنا[2] .

فحاصرها بضعاً وعشرين ليلة[3] .

---

(١) وفي الطريق إلى الطائف مرَّ المسلمون بقبر فقال ﷺ : « هذا قبر أبي رِغَال وهو أبو ثقيف وكان من ثمود ، وكان بهذا الحَرَم يَدْفع عنه ، فلما خرج أصابته النقمة التي أصابت قومه بهذا المكان فَدُفِنَ فيه ، وآيةُ ذلك أنه دفن معه غصنٌ من ذهب ، إن نَبَشْتم عنه أصبتموه » فابتدره الناسُ فاستخرجوا معه الغصن . السِّيرة النبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٦٥٥ ، السِّ... المحمدية : جـ ٢ ص ١٣١ و ١٣٢ .

(٢) السِّيرة الحلبيَّة : جـ ٣ ص ١٣٤ ، السِّيرة النبويَّة والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ٣٥٣ .

(٣) الاكتفاء : جـ ١ ص ١٤٧ / ب ، السِّيرة النبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٦٥٦ ، تاريخ خليفة بن خياط : ص ٨٩ .

وفي رأي : ثمانية عشر يوماً غير يومي الدخول والخروج[1] .
وفي رأي آخر: سبع عشرة ليلة[2] .

قاتل المسلمون أهل الطائف وقاتلوهم من وراء حصنهم ، وكثرت الجراح وقطعوا طائفةً من أعنابهم ، ولا بد لنا من التعليق التالي حول هذه الحادثة :

حِصَار المدن
في القانون الدولي العام :

وفي القانون الدولي العام : «إن الاستيلاء على المدن والمواقع المحصَّنة الواقعة تحت يد العدو، يحرمه من كثير من الموارد والقوى الماديَّة والبشريَّة التي تقوم عليها قدرته الحربيَّة ، ويؤدِّي بالنتيجة إلى إضعافه ويعجل بخسارته للحرب ، لذلك تعمد القوات المحاربة إلى تحقيق الاستيلاء على أكبر عدد ممكن من المدن والمواقع المختلفة عن طريق الحصار الذي تفرضه عليها لتمنع اتصالها بباقي أجزاء الأقاليم ، حتى ينفذ مالديها من مؤن وذخائر وتنهار روحها الدفاعية فتضطر إلى التسليم ، وحصار المدن والمواقع لإرغامها على التسليم بدلاً من الهجوم عليها وقصفها بالقنابل والاستيلاء عليها عنوة عمل مشروع ومباح بنظر القانون الدولي العام .

---

(١) السِّيرة الحلبيَّة : جـ ٣ ص ١٣٣ ، الوفا بأحوال المصطفى : جـ ٢ ص ٧٠٧ .

(٢) ابن هشام : جـ ٤ ص ٩٤ .

ويحق للقوات المهاجمة ـ إذا لم تقبل المدن والمواقع المحاصرة بالتسليم ـ أن تقصف تلك المدن والمواقع بمختلف القذائف والقنابل والأسلحة غير المحرَّمة دولياً » . للتوسع راجع الحرب في القانون الدولي العام : ص ١١٦ و ١١٧ .

تَحْرِيرُ العَبِيد « أُولئك عُتَقَاء الله » :

وبعث رسول الله ﷺ منادياً ينادي : « من خرج إلينا من العبيد فهو حر »[١] . فاقتحم سور الحصن نفر فيهم :

نُضَيْع بن مَسْرُوح[٢] ، تدلّى من سور الطائف على بَكْرة[٣] فكني أبا بَكْرة ، وأسلم وكان من فضلاء أصحاب رسول الله ﷺ ، وذكر بعضهم أخاه نافعاً أيضاً فيمن خرج من سور الطائف .

---

(١) الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١٨١ ، الروض الأُنف : جـ ٤ ص ١٦٤ ، ابن سعد : جـ ٢ ص ١٥٨ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٣٤٧ ، ابن هشام : جـ ٤ ص ٩٥ ، فتوح البلدان : ص ٦٦ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ٢٠١ ، السِّيرة النبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٦٥٧ ، السِّيرة الحلبية : جـ ٣ ص ١٣٥ ، تاريخ خليفة بن خياط : ص ٨٩ .

(٢) أبو بَكْرة نُفَيْع بن الحارث بن كَلَدَة .. ابن مسروح ، كان يقول : أنا من إخوانكم في الدين ، وأنا مولى رسول الله ﷺ ، وإنْ أَبى الناسُ إلاَّ أن ينسبوني ، فأنا نُفَيع بن مَسْروح ، وكان أبو بكرة كثير العبادة حتى مات ، وكان أولاده أشرافاً في البصرة ، وتوفي أبو بكرة بالبصرة سنة إحدى أو اثنتين وخمسين للهجرة ، وأوصى أن يصلي عليه أبو برزة الأسلمي . أُسد الغابة : جـ ٦ ص ٣٨ و ٣٩ .

(٣) البَكْرة : بالفتح ، اسم خشبة مستديرة في وسطها مَحَزّ للحبل وفي جوفها محور تدور عليه يستقى عليها . تاج العروس (بكر) .

مسجد العباس رضي الله عنه في الطائف



منظر عام لمدينة الطائف اليوم

ومنهم الأزرق ، وكان عبداً للحارث بن كلدة .

ومنهم المنبعث ، وكان اسمه المضَّطجع ، فبدَّل رسول الله ﷺ اسمه ، وكان عبداً لعثمان بن عامر بن معتب .

ومنهم يحنس النبَّال ، وكان عبداً لبعض آل يسار .

ومنهم وردان ، جدّ الفرات بن زيد بن وردان ، وكان لعبد الله ابن ربيعة بن خرشة .

ومنهم إبراهيم بن جابر ، وكان لخرشة أيضاً ...

فأعتقهم رسول الله ﷺ ، ودفع كُلَّ رجل منهم إلى رجل من المسلمين يَعُوله ويحمله ، وعن ابن عَبَّاس : أن رسول الله ﷺ كان يعتق من جاءه من العبيد قبلَ مواليهم إذا أسلموا . وعند الإمام أحمد : أن كلَّ عبد جاء من دار الحرب إلى دار الإسلام عُتِقَ حكماً شرعياً مطلقاً عاماً ، وقال آخرون : إنما كان هذا شرطاً لا حُكماً عاماً . ولما قدم وفد أهل الطائف فأسلموا ، قالوا : يا رسول الله رُدَّ علينا رقيقنا الذين أتوك ، قال ﷺ : « لا ، أولئك عُتَقَاء الله » .

يَوْمُ الشَّدْخَةِ :

ونصب ﷺ على أهل الطائف المنجنيق ، ونثر الحسك سقبين من

عيدان حول الحصن[1] . ورماهم بالمنجنيق ، وكان ﷺ أوّل من رمى في الإسلام بالمنجنيق[2] ، وكان سلمان الفارسي هو الذي أشار بالمنجنيق وعمله بيده .

ودخل نفر من الصحابة تحت دبابة[3] ثم زحفوا ليَحرقوا جدار سور الطائف ، فأرسلت عليهم ثقيف من أعلى السور سكك الحديد المحمَّاة بالنار ، فخرج المسلمون من تحتها ، فرمتهم بالنبل فقتلوا منهم رجالاً ، فحينئذٍ أمر رسول الله ﷺ بقطع أعناب ثقيف ، فوقع الناس فيها يقطعون ليغيظوهم بها ، فقالت لهم ثقيف : لاتفسدوا الأموال فإنها لنا أو لكم ، دعوها لله وللرحم ، فقال ﷺ : « إني أدعها لله وللرحم »[4] .

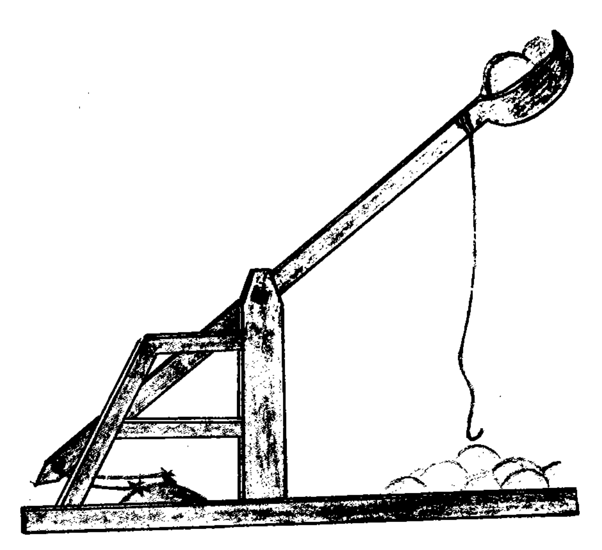
---

(١) الحَسَك : نبات له ثمرة خشنة تعلق بأصواف الغنم ، والحسك من الحديد : مايعمل على مثاله ، وهو من آلات العسكر يلقى حول المعسكر ، وربما أُخذ من خشب . لسان العرب : جـ ١٠ ص ٤١١ ، ويقال للغُصْن الريَّان الغليظ الطويل سقب ، وسقبان : أي طويلان . لسان العرب : جـ ١ ص ٤٦٩ .

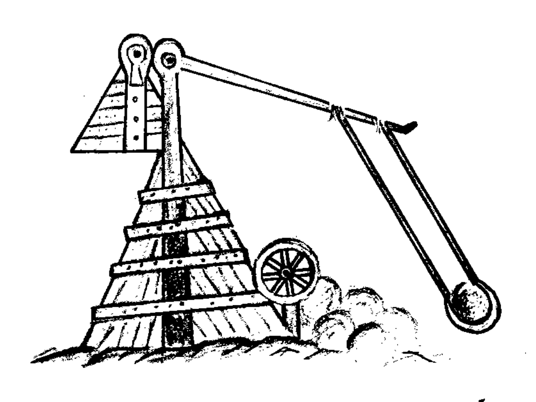
(٢) أما في الجاهلية فيذكر أن جذيمة بن مالك بن فهم بن غنم بن دوس ، وهو المعروف بالأبرش والوضّاح أول من رمى بالمنجنيق . الأعلام : جـ ٢ ص ١٠٥ .

(٣) الدَّبَّابة : آلة من آلات الحرب ، يدخل فيها الرجال فيدبُّون بها إلى الأسوار لينقبوها . انظر صورة المنجنيق ، والدَّبَّابة .

(٤) جاء في شرح العلامة الزرقاني على المواهب اللَّدنيَّة للعسقلاني : جـ ٣ ص ٣١ : [فأمر رسول الله ﷺ بقطع أعنابهم (ونخيلهم) وتحريقها ، قال عروة : أمر كل مسلم أن يقطع خمس نخلات وخمس حبلات ، فقطع المسلمون قطعاً ذريعاً (سريعاً) ، ثم سألوه أن يدعها لله وللرحم ، فقالوا : لِمَ تقطع أموالنا ؟ إما أن تأخذها إن ظفرتم علينا ، وإما أن تدعها لله وللرحم ، فقال عليه الصلاة والسلام : إني أدعها (أتركها) لله وللرحم التي بيني وبينكم ، لأن =



نموذج مُبَسَّط للمنجنيق



رَمْيُ الأحجار بالمنجنيق «مقتبس عن جامع التواريخ لرشيد الدين»
المجانيق المقلاعية، ويمكنها الدوران ٣٦٠° (دورة كاملة)
قبل رمي المقذوف

وسمي هذا اليوم، الذي أُصيب به عدد من المسلمين بنبل ثقيف: يوم الشَّدْخة[1].

عُيَيْنةُ بن حصن:

واستأذن عيينة[2] بن حصن رسولَ الله ﷺ في أن يأتي أهلَ الطائف فيدعوهم إلى الإسلام، فأذن له، فدخل في حصنهم، فأمرهم بالثبات في حصنهم «تمسَّكوا في حصنكم فوالله لنحن أذل من العبيد» وقال: لا يَهُولنكم قطعُ ما قطع من الأشجار.

فلما رجع عيينة، قال له رسول الله ﷺ: «ما قلت لهم؟»، قال: دعوتهم إلى الإسلام، وأنذرتهم النار، وذكَّرتهم بالجنة، فقال ﷺ:

= أمه آمنة أُمها برة بنت عبد العُزّى بن قصي، وأُم برة هذه أُم حبيب بنت أسعد، وأمها برة بنت عوف، وأُمها قلابة بنت الحرث، وأم قلابة هند بنت يربوع من ثقيف].

(1) الشَّدْخ: الكسر والتهشيم. لسان العرب: جـ ٣ ص ٢٨، وأثناء حصار الطائف أمر ﷺ ألاَّ يدخل المخنثون على النساء: «لا يدخلن على أحد من نسائكم»، «لا يدخلن هؤلاء عليكن»، وسببه أن المخنث «هيتَ» وصف باديةَ بنت غيلان وصفاً يدل على إمعانه النظر فيها: «لقد غلغلت النظر ياعدو الله»، ثم نفاه من المدينة المنورة إلى الحمى مع مخنثين آخرين هما: (ماتع، وإنه)، فقيل يارسول الله، إنه يموت جوعاً، فأذن له أن يدخل المدينة كل جمعة يسأل الناس ثم يرجع، فلما توفي رسول الله ﷺ دخلوا المدينة، فأخرجهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فلما توفي دخلوا المدينة فأخرجهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(2) السِّيرة النبويَّة لابن كثير: جـ ٣ ص ٦٥٩، السِّيرة الحلبيَّة: جـ ٣ ص ١٣٥، البداية والنهاية: جـ ٤ ص ٣٤٨، ٣٤٩.

« كَذَبْتَ ، إنما قلت لهم كذا وكذا » ، وذكر له ماقاله في الحصن ، فقال عيينة : صدقتَ يا رسول الله ، أَتُوب إلى الله وإليك من ذلك[1] .

«إنَّا قَافِلُونَ غَداً إنْ شَاءَ اللهُ» :

وقال ﷺ لنوفل بن معاوية الدَّيلي : « يانوفل ، ماترى في المقام عليهم ؟ » . فأجاب : يارسول الله ، ثعلبٌ في جُحْر إن أقمتَ عليه أخذته ، وإن تركته لم يضرّك[2] .

وقال ﷺ لأَبي بكر الصديق رضي الله عنه : « ياأبا بكر ، إني رأيتُ أني أُهْدِيَت لي قَعْبةٌ[3] مملوءة زُبْداً فنقرها ديكٌ فأهراق مافيها » فقال أبو بكر رضي الله عنه : ماأظن أن تُدْرك منهم يومك هذا ماتريد يارسول الله ، فقال ﷺ : « وأنا لاأرى ذلك »[4] .

وقالت خولة بنت حكيم السُّلمية ـ وهي امرأة عثمان بن

---

(١) السِّيرة النبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٦٥٩ ، السِّيرة الحلبيَّة : جـ ٣ ص ١٣٥ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٣٤٨ ، ٣٤٩ .

(٢) ابن سعد : جـ ٢ ص ١٥٩ ، الطبري : جـ ٣ ص ٨٤ ، الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١٨١ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٣٥٠ ، السِّيرة النبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٦٦٢ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ٢٠١ ، السِّيرة الحلبيَّة : جـ ٣ ص ١٣٥ ، السِّيرة النبويَّة والآثار المحمديَّة : جـ ٢ ص ٣٥٤ .

(٣) القَعْبُ : القَدَح الضَّخم الغليظ ، وقيل : قدح من خشب مُقَعَّر . لسان العرب : جـ ١ ص ٦٨٣ .

(٤) الاكتفاء : جـ ١ ص ١٤٨ / أ ، الطبري : جـ ٣ ص ٨٥ ، ابن هشام : جـ ٤ ص ٩٥ .

مظعون ـ : يا رسول الله أعطني إن فتح الله عليك حُليّ بادية بنت غيلان بن سلمة ، أو حُليَّ الفارعة بنت عقيل ، فقال لها ﷺ : « وإن كان لم يُؤْذَن في ثقيف يا خُوَيْلة ؟ » .

فخرجت خولة فذكرت ذلك لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فدخل على رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله ، ما حديثٌ حدثتنيه خولة ، زعمت أنك قلته ؟ قال : « قد قلته » ، قال عمر : أَوَ مَا أُذِنَ فيهم ؟ ، قال ﷺ : « لا » ، قال : أفلا أُؤذِّن بالرحيل ؟ قال : « بلى » .

فأذن عمر بالرحيل ، فلما أصبحوا ارتحل رسول الله ﷺ وأصحابه ، وقيل له ﷺ : ٱدع على ثقيف ، فقال حين ركب قافلاً : « اللهم اهدهم واكفنا مؤنتهم » ، « اللهم اهدِ ثقيفاً وائت بهم »[١] .

وقال عيينة بن حصن لأهل الطائف عند الانسحاب : أجل والله مجدة كراماً ، فقال له رجل من المسلمين : قاتلك الله ياعيينة ، أتمدح المشركين بالامتناع من رسول الله ﷺ ، وقد جئت تنصره ؟ فقال عيينة : إني والله ما جئت لأُقاتل ثقيفاً معكم ، ولكني أردت أن يفتح محمد الطائف فأتزوج جارية لعلها تلد لي رجلاً ، فإن ثقيفاً مناكير[٢] .

---

(١) ابن سعد : جـ ٢ ص ١٥٩ ، السّيرة النبويّة والآثار المحمديَّة : جـ ٢ ص ٣٥٤ ، السِّيرة النبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٦٦٣ ، المواهب اللدنية بالمنح المحمديَّة : جـ ١ ص ١٦٧ .

(٢) الاكتفاء : جـ ١ ص ١٤٨ / أ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٣٥٠ . والنُكْرُ والنَّكْراءُ : الدَّهاءُ والفِطنة ، ورجل نَكِرٌ ونَكُرٌ ونُكُرٌ ومُنْكَرٌ من قوم مَناكير : داهٍ فَطِنٌ . لسان العرب : جـ ٥ ص ٢٣٢ .

مَن استشهد مِنَ المُسْلِمينَ بِالطَّائِف :

☆ من قريش :

(من بني أمية) : سعيد بن سعيد بن العاص بن أُميَّة .

وعُرْفُطة بن الحُبَاب بن حبيب[1] ، حليف لبني أُميَّة بن عبد شمس بن عبد مناف .

(من تميم بن مرّة) : عبد الله بن أبي بكر الصديق ، رُمِيَ بسهم فمات في المدينة بعد وفاة رسول الله ﷺ .

(من مخزوم) : عبد الله بن أَبي أُميَّة بن المغيرة المخزومي ، استشهد من رمية رُمِي بها .

(من بني عديّ) : عبد الله بن عامر بن ربيعة ، من أهل اليمن حليف لبني عديّ[2] .

(من بني سهم) : من بني سهم بن عمرو : السَّائب بن الحارث بن قيس السَّهمي .

وأخوه : عبد الله بن الحارث بن قيس السَّهمي .

---

(١) أُسد الغابة : جـ ٤ ص ٢٥ ، وهو في السِّيرة النبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٦٦٣ : عرفطة بن جَناب ، وما أثبتناه أعلاه أصح .

(٢) في أُسد الغابة : جـ ٣ ص ١٨٦ : وهو من عنز بن وائل أخي بكر بن وائل ، وقيل من مذحج . من اليمن .

(من بني سعد) : ومن بني سعد بن ليث : جُلَيْحَة[1] بن عبد الله ابن مُحَارب، من بني سعد بن ليث.

☆ من الأنصار «من الخزرج» :

(من بني سلمة) : ثابت بن الجِذْع[2] الأَسْلَمي.

(من بني مازن) بن النجار: الحارث بن سهل بن أبي صَعْصعة[3] المازني الأنصاري.

(ومن بني ساعدة) : المنذر بن عبد الله.

«ومن الأوس» : رُقَيْم بن ثابت بن ثعلبة بن زيد بن لَوْذان بن معاوية.

فجميع من استشهد يومئذ اثنا عشر رجلاً : سبعة من قريش، وأربعة من الأنصار، ورجل من بني ليث[4].

---

(١) جُلَيْحَةُ بن عبد الله بن مُحَارِب بن ناشب بن غِيَرَة بن سعد بن ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة بن خزيمة . أُسد الغابة : جـ ١ ص ٣٤٨ .

(٢) واسم الجِذْع : ثعلبة بن زيد بن الحارث بن حرام بن كعب الخزرجي الأنصاري . أُسد الغابة : جـ ١ ص ٢٦٥ .

(٣) الصَّعْصَعَةُ : الحركة والاضطراب ، والصَّعْصَعَةُ : التحريك . لسان العرب : جـ ٨ ص ٢٠٠ .

(٤) لمن استشهد من المسلمين بالطائف راجع الاكتفاء : جـ ١ ص ١١٨ / أ ، السِّيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٦٦٣ و ٦٦٤ ، تاريخ خليفة بن خياط : ص ٩٠ ، الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١٨٢ ، ابن هشام : جـ ٤ ص ٩٦ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ٢٠٢ ، الطبري : جـ ٣ ص ٨٥ ، ابن خلدون : جـ ٢ ص ٤٨ .

ولما انصرف رسول الله ﷺ عن الطائف، قال بُجَيْر بن زهير بن أبي سلمى يذكر حنيناً والطائف:

كَانَتْ عُلاَلَةَ يومَ بَطنِ حُنَينٍ وغداةَ أَوْطَاسٍ وَيومَ الأبرقِ[1]

جَمَعَتْ بِإغواءٍ هوازنُ جَمْعَها فتبدّدوا كالطائر المتمزّقِ

لم يمنعوا مِنّا مقاماً واحداً إلاّ جدارَهُمُ وبطنَ الخندقِ

ولقد تعرَّضنا لِكَيْما يَخْرجُوا فاستحصَنوا منا بباب مُغْلَق

ترتدُّ حَسْرانا إلى رَجْرَاجةٍ شهباء تَلْمَعُ بالمنايا فَيْلقِ[2]

مَلْمومة خضراءَ لو قَذَفوا بها حصناً لظل كأنه لم يُخْلَق

مَشْيَ الضِّراء على الهَرَاسِ كأننا قُدْرٌ تفرَّق في القياد ويلتقي[3]

---

(١) كانت عُلاَلَةً : العلالة : جري بعد الجري ، أو قتال بعد قتال ، يريد أن هوازن جمعت جمعها علالة في ذلك اليوم . الروض الأُنف : جـ ٤ ص ١٦٥ . والعلالة لغة : بقية اللبن وغيره ، حتى إنهم ليقولون لبقية جَرْي الفَرَس عُلاَلَة ، ولبقية السَّير علالة ، والعلالة : ماتعللت به : أي لهوت به . لسان العرب : جـ ١١ ص ٤٧٠ ، وبَرَق الرجل وأبرَق : تهدَّد وأوعد . لسان العرب : جـ ١٠ ص ١٤ .

(٢) ترتد حسراناً : جمع حسير ، وهو الكليل ، والرجراجة : الكتيبة الضخمة ، من الرجرجة : وهي شدة الحركة والاضطراب ، والفيلق : من الفلق ، وهي الداهية . الروض الأُنف : جـ ٤ ص ١٦٥ .

(٣) الضِّراء : الكلاب ، والهراس : شجر شائك كالنبق ، يريد أن الكلاب إذا مشت في الهراس ابتغت لأيديها موضعاً ، ثم تضع أرجلها في موضع أيديها ، شبَّه الخيل بها ، وقدر : الوعول المُسِنَّة . الروض الأُنف : جـ ٤ ص ١٦٥ .

في كل سـابغـةٍ إذا مـا استحصنتْ ... كالنِّهْي هبَّتْ رِيحُــــةُ المترقرقِ[1]

جُــدُل تمسُّ فضـولهُنَّ نِعـالَنَــا ... من نَسْـــجِ داودٍ وآلِ محرِّقِ[2]

صَخْرُ بن العَيْلَة الأَحْمَسِيّ:

ولما سمع صخر بن العيلة الأَحمسي[3] أن رسول الله ﷺ غزا ثقيفاً، ركب في خيل يَمُـدُّ رسـولَ الله ﷺ، فـوجـده قـد انصرف ولم يفتـح، فجعل صخر حينئذ عهداً وذمةً لا أُفارق هـذا القصر حتى ينزلوا على حكم رسـول الله ﷺ، ولم يفـارقهم حتى نـزلـوا على حكم رسـول الله ﷺ، وكتب صخر إليـه ﷺ: أمـا بعـد، فـإنَّ ثقيفـاً قـد نزلت على حكمـك يا رسول الله، وأنا مقبل بهم، وهم في خيلي.

فأمر رسول الله ﷺ بالصلاة جامعة، فدعـا لأَحْمَس عشر مرات: «اللهم بارك لأحمس في خيلها ورجالها»[4].

---

(١) في الروض الأُنف النهيء: الغدير، سمي بذلك لأنه ماء نهاه مـا ارتفـع من الأرض عن السيلان فوقف.

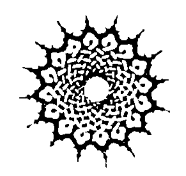
(٢) جدل: جمع جدلاء، وهي الدراع الشديدة الفتل، وآل محرِّق يعني عمرو بن هند ملك الحيرة وهو عمرو بن المنذر اللخمي، عرف بنسبته إلى أمه هنـد، يُلَقَّب بـالمحرِّق لإحراقه بعض بني تميم في جناية واحد منهم اسمه سويد الدارمي، قتل ابنـاً (أو أخـاً) صغيراً لعمرو. الأعلام: جـ ٥ ص ٢٦١.

(٣) صخر بن العَيْلة بن عبد الله بن ربيعة بن عمرو بن علي بن أسلم بن أحمس بن الغَوْث بن أنمار البَجَلي الأَحْمَسي. أسد الغابة: جـ ٣ ص ١٢ و ١٣.

(٤) السِّيرة النبوية لابن كثير: جـ ٣ ص ٦٦٥، البداية والنهاية: جـ ٤ ص ٣٥١.

وأتى القومُ فتكلم المغيرة بن شعبة فقال : يا رسول الله ، إن صخراً أخذ عَمَّتي ودخلت فيما دخل فيه المسلمون ، فدعاه فقال ﷺ : « يا صخر ، إن القوم إذا أسلموا أحرزوا دماءهم وأموالهم ، فادفع إلى المغيرة عَمَّته » ، فدفعها إليه .

وسأل صخرُ رسولَ الله ﷺ ماءً لبني سليم قد هربوا عن الإسلام ، وتركوا ذلك الماء ، فقال : يا رسول الله ، أَنْزِلْنِيهِ أنا وقومي ، قال ﷺ : « نعم » ، فأنزله وأَسْلَم - يعني الأَسلميِّين - فأتوا صخراً فسألوه أن يدفع إليهم الماءَ فأبى ، فأتوا رسولَ الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله ، أسلمنا وأتينا صخراً ليدفع إلينا ماءَنا فأبى علينا ، فقال ﷺ : « يا صخر ، إن القوم إذا أسلموا أحرزوا أموالهم ودماءهم ، فادفع إليهم ماءهم » ، قال صخر : نعم يا نبي الله ، ودفع الماء لهم .



نظرات فيما سبق وملاحظة

☆ « يجب أن تعانقَ مداخنُ مصانعنا الحربيَّة المتقدِّمة المتطوِّرة ، مآذن مساجدنا ، لتحمي تلك المصانع بما تنتجه هاتيك المآذن » .

يتصرَّف القائد العسكري حسبما تمليه الظروف المحيطة بجو المعركة ، وبالتالي قد يُعَدِّل من خطته حسب مقتضيات الأُمور التي تواجهه ، وعندما نتعرَّف هذه الأُمور المحيطة ، يسهل علينا تَفَهُّم الموجبات والمقتضيات التي رافقت وأملت المواقف .

ومن الأُمور التي يمكننا طرحها والتوقُّف عندها ، للوصول إلى جواب مناسب ، ما يلي :

١ ـ « إنَّا لا نَسْتَعِينُ بِمُشْرِكٍ » :

جاء في كتب الحديث الصحيحة[1] ، أن رجلاً من المشركين ، لحق

(١) مسند الإمام أحمد : جـ ٣ ص ٤٥٤ ، و جـ ٦ ص ٦٨ و ١٤٩ ، أبو داود ، جهاد : ١٥٣ (جـ ٣ ص ١٧٢ ، الحديث رقم ١٥٣) ، ابن ماجه ، جهاد : ٢٧ ، الدارمي ، سير : ٥٣ .

برسول الله ﷺ ليقاتل معه ببدر، فقال ﷺ: «ارجع، إنا لا نستعين بمشرك»، ورواية مسلم[1]: «فارجع فلن أستعين بمشرك»، ثم أسلم، فانطلق مع رسول الله ﷺ إلى بدر.

ولكن رسول الله ﷺ استعان بصفوان بن أمية، واستعار منه دروعاً وأفراساً، وكان معه ﷺ في حنين والطائف مشركون كثيرون بقيادة عيينة بن حصن، وعباس بن مرداس، والأقرع بن حابس، فكيف نوفق بين الموقف ببدر، والموقف في حنين والطائف، وسنرى عند توزيع الغنائم في الجِعْرانة أن رسول الله ﷺ سيعطيهم مع المؤلفة قلوبهم!

وفي صحيح مسلم بشرح النووي[2]: ثم استعان ﷺ بصفوان بن أُميَّة قبل إسلامه، فأخذ طائفة من العلماء بالحديث الأول على إطلاقه، وقال الشافعي وآخرون: إن كان الكافر حسن الرأي في المسلمين، ودعت الحاجة إلى الاستعانة به، اسْتُعِين به، وإلاّ فيكره، وحمل الحديثين على هاتين الحالتين، وإذا أُحضر الكافر بالإذن رُضِخ[3] له - من الغنائم - ولا يسهم له، هذا مذهب مالك والشافعي وأبي حنيفة والجمهور، وقال الزهري والأوزاعي يُسْهَمُ له.

---

(١) مسلم، المجلد ٣ ص ١٤٤٩، الحديث ٥١، باب كراهة الاستعانة في الغزو بكافر.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي: جـ ١٢ ص ١٩٩.

(٣) الرَّضْخُ: العطاء، رضختُ له من مالي رَضِيخَةً وهو القليل، والرَّضيخة والرُّضاخة: العطية. لسان العرب: جـ ٣ ص ١٩.

ونضيف ، من الناحية التاريخية قائلين : أفراد مقاتلون تواجدوا حول مكة بعد الفتح الأعظم ، فَيخْشى من حركتهم ودعمهم للعدو في ساعات المعركة الحرجة ، فاستطاع رسول الله ﷺ أن يكسب هذه القوى إلى جانبه ، وتكون هناك فرصة لتعرُّف الإسلام عن قرب ، وذلك في سلوك المجاهد المسلم وأعماله وحياته اليوميَّة ، أو بما يتلقاه من مبادئ الإسلام السهلة الواضحة ، لزعزعة الشرك والوثنية من ذهنه وقلبه ، وبالتالي اعتناق الإسلام بعد تعرف أركانه .

ولا يفوتنا القول ، إن هذه القوة المشركة المقاتلة ، كانت تحت المراقبة والحذر والاحتراس ، مع يقظة تامة نحوهم ، وما قصة دخول عيينة إلى الطائف ، وفضح رسول الله ﷺ لما قاله عند ثقيف عنا ببعيد .

في بداية الدعوة ، في بدر وأُحُدَ والخندق : «إنَّا لا نستعين بمشرك» لكيلا تكون للمشركين حجة بأنهم هُمُ الذين صنعوا النصر ببطولتهم ، وبفضل سواعدهم أحرزوا الفوز ، وبسبب جهودهم حققوا النجاح . أما بعد أن أصبحت للإسلام قوته التي لاتضاهى في جزيرة العرب ، حيث غدت كل قوة تُجَاه قُوَّتِهِ وهيبته وسمعته دونه بكثير ، التحق المشركون بجيش المسلمين وهم على يقين بأنهم على هامش قوته ، فكُلٌّ ادعاء منهم بفضل مرفوض ، وكل ادعاء بأنهم محور قوة الجيش مدحوض .

في بـدر كان من المفروض أن يُعْقَــد النصر ويُحَقَّـق على سـواعـد المسلمين وحدهم ، وبمعونة الله عز وجل تثبيتـاً وعونـاً ، وبخـاصـة أنهم في خطـواتهم الأولى نحـو تـأسيس دولتهم ، أمـا بعــد خيبر ، وبعــد الفتـح الأعظم ، فلا مجـال لادعـاء مشرك بـأنـه حقَّق نصراً ، وبفضـل معـونتـه وجهوده كسب المسلمون معركة .

٢ـ الاستِطلاعُ في حُنين :

من البدهي أن يكون قائد كل معركة على علم مسبق بخطة عـدوّه وتحركاته المنتظرة المتوقَّعة ، ليتمكَّن من تعديل ورسم خطته العسكريـة بشكل يفسد على العدو خطته ، وليستطيع السَّيطرة على ما يحيط به من أحداث بما لا يفسـد خطتـه ، وليضمن بقـاء « المبـادأة » بيـده . ولا يمكن لقائد ما أن يحقق ما سبق إلاَّ بجهاز استطلاع حيوي موثوق .

لقد كان الإعجاب بكثرة العدد سبباً لهزيمة المسلمين في بدء معركـة هـوازن ، فـأنـزل الله عـز وجـل سكينتَـهُ ونصر نبيَّـهُ ، وقـد يكـون من الأسبــاب التي ترتَّبت على « الإعجــاب بـــالكثرة » تهــاون عنـــاصر الاستطـلاع بتحركات هــوازن وثقيف . ففــاجــأ الكمينُ المسلمين وكان ما كان ، لذلك حقَّق رسول الله ﷺ استطلاعاً رائعاً للطـائف ، نقـدمـه من خلال الفقرة الثالثة التالية :

٣ـ تَحْرِيرُ العَبِيدِ :

الإسلام هو الدين الوحيد الذي شَرَّع للأرقاء شرعة كاملة مدروسة لم يسبقه إليها أحد ، وإن الحضارة الغربيَّة لم تدرك بعد شَأْوَ الإسلام في إنصافه لجميع الأَرقاء ، فالرقيق كان صناعة شركات أُوربية وأمريكية ، حتى إن الملكة أَليزابيت الأُولى (١٥٥٨ م ـ ١٦٠٣ م) شاركت جون هوكنز أعظم نخاس في التاريخ تجارَتَه ، ورفعته إلى مرتبة النبلاء إعجاباً ببطولته ، وجعلت شعاره رقيقاً يرفل في السلاسل والقيود ، وكانت السفينة التي أعدَّتها الملكة لجون هوكنز تحمل اسم « يسوع » !!

لقد كان العتق شرعة الإسلام ، فالقرآن الكريم ليس فيه آية واحدة تحثُّ أو تحضُّ على الرق ، وكذلك الحديث النبويّ الشريف ، بل فيهما ما يحثُّ ويحضُّ على العتق[١] .

فلما قال رسول الله ﷺ أثناء حصار الطائف : « من خرج إلينا من العبيد فهو حر[٢] » ، حقَّق هدفين اثنين :

---

(١) وهذا مافصلناه في كتاب « الإسلام في قفص الاتهام » الجلسة الثانية عشرة ، بحث : الإسلام والرقيق .

(٢) وفي رواية « من خرج إلينا فهو حر » ، أي كل من يخرج لن يُؤسر أو يُسترق ، وهذا طبعاً شمل العبيد وكل أهل ثقيف ، وهذه محاولة لتشتيت شملهم ، وإيقاع الفرقة بينهم ، وبث الشكوك فيمن سيخرج وفيمن سيبقى ، مما يجعل قادتهم ووجهاءهم في حيرة واضطراب .

١ ـ تحرير الأرقاء المضطهدين ، وهذه دعوة ملحة في برنامج الإسلام .

٢ ـ وحقق ﷺ استطلاعاً لأحوال ثقيف داخل أسوارها . واستناداً لما قدموه من معلومات تبين لرسول الله ﷺ أن المؤونة والعتاد تكفي ثقيفاً لمدة طويلة ، وبناء على ذلك عدل ﷺ خطة الحصار .

٤ ـ «أَمَرَ رسولُ الله ﷺ بقطع أعنابِهِم ونخيلِهِم وتحريقها» !!

رسول الله ﷺ أمام مدينة من أمنع مدن جزيرة العرب ، فهي أمنع من عقاب الجو بحصونها وأسوارها ، مع صمود أهلها واستعدادهم لحصار طويل .

وحاول خالد بن الوليد رضي الله عنه أن ينزلهم من حصونهم فنادى : من يبارز ؟ فلم يطلع إليه أحد ، ثم كرر ذلك ، فلم يطلع إليه أحد ، وناداه عبدياليل : لا ينزل إليك منا أحد ، ولكن نقيم في حصننا فإن به من الطعام ما يكفينا سنين ، فإن أقمت حتى يذهب هذا الطعام خرجنا إليك بأسيافنا جميعاً حتى نموت عن آخرنا .

ورماهم ﷺ بالمنجنيق ، ودخل نفر من الصحابة تحت دبابة من جلود البقر ، ثم زحفوا ليخرقوا جدارَ الحصن ، فأرسلت عليهم ثقيف

سكك الحديد مُحَمَّاة بالنـار، فخرجوا من تحتها فرموهم بـالنبل فقتلوا منهم رجالاً، فحينئذ أمر رسول الله ﷺ بقطع أعنـاب ثقيف ليغيظهم بها، ثم تركها رسول الله ﷺ لله وللرحم.

لقد هدَّدهم رسول الله ﷺ بـأموالهم التي خـارج حصنهم، بعـد أن أخفق معهم كل سبيل حتى المنجنيق والدبابات.

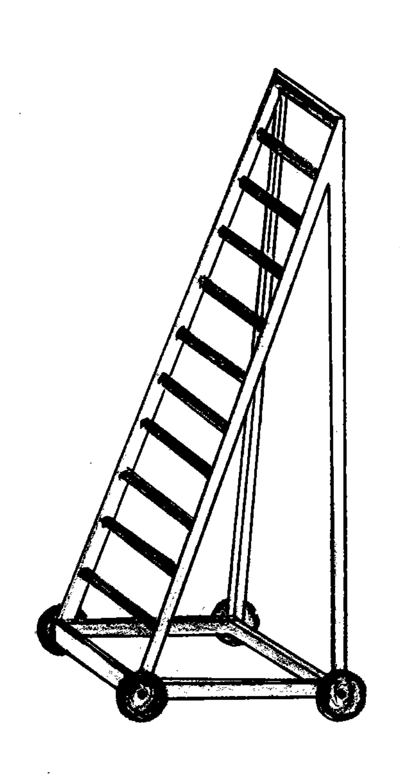
وليس قطع الشجر شرعـة، بـل الحفـاظ عليهـا هـو الأصـل: «إذا قامت القيامة وبيد أحـدكم فسيلـة فليغرسهـا»، وحرق بعض الأعنـاب أمام أعين ثقيف يمكن تحديده بما يلي: **حاول رسول الله ﷺ أن يُخْرِجَ ثقيفاً إلى النزال بأيَّة وسيلة كانت**. وحتى هذه الوسيلـة كانت تهـديـداً أكثر من الإبادة الفعليـة، فلمـا أخفقت في تحقيق مـا أُريـد منهـا تُرِكَت وانتهى الحصار، بعد أن تعذَّر اللقاء وجهاً لوجه.

٥ـ صناعة المجانيق والدبَّابات:

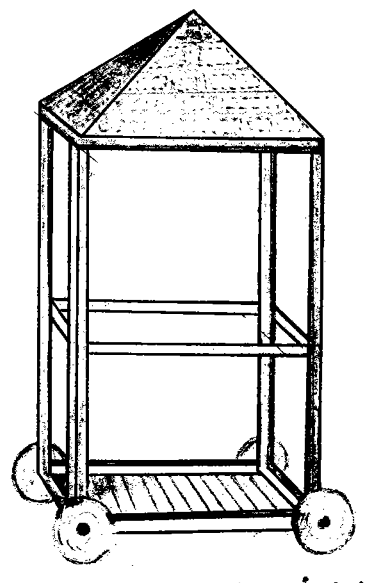
وردت عبارة يمكننا الوقوف عندها، في معظم المصـادر[١]، وهي:

---

(١) الاكتفـاء: جـ ١ ص ١٤٧ / أ، البـدايـة والنهـايـة: جـ ٤ ص ٣٤٥، ابن هشـام: جـ ٤ ص ٩٠، السِّيرة الحلبيَّة: جـ ٣ ص ١٣٤، ابن خلدون: جـ ٢ ص ٤٧، السِّيرة النبويَّة لابن كثير: جـ ٣ ص ٦٥٢، ابن سعد: جـ ٢ ص ١٥٨، السِّيرة النبويَّـة والآثـار المحمديَّـة: جـ ٢ ص ٣٥٣، الكامـل في التـاريـخ: جـ ٢ ص ١٨١، الروض الأُنف: جـ ٤ ص ١٦٣، الطبري: جـ ٣ ص ٨٤، عيـون الأثر: جـ ٢ ص ٢٠١، فتـوح البلـدان: ص ٦٧، الـوفـا بأحوال المصطفى: جـ ٢ ص ٧٠٢، المواهب اللَّدنيَّة بالمنح المحمديَّة: جـ ١ ص ١٦٦، إمتـاع الأسماع: جـ ١ ص ٤١٨.



نموذج سلالم الحِصَار



نموذج أبراج الحِصَار

« ولم يشهد حُنيناً ولا حصارَ الطائف عروةُ بن مسعود ولا غَيْلان بن سلمة ، كانا بِجُرَش[1] يتعلّمان صنعةَ الدبابات والمجانيق والضُّبُور[2] » ، يريدان أن ينصباه على حصن الطائف .

الطائف ركن مهم في جزيرة العرب ، ومدينة قريبة من مركز الشرك مكّة ، وأهلها ـ ثقيف ـ يعلمون أن مدينتهم ذات حصون مهيّأة للحصار ، فأمر طبيعي الاعتناء بوسائل الحصار ، وهم أهل حرب وقتال ، وهم أدرى بما جرى بخيبر وحصونها ، فذهب عروةُ بن مسعود وغيلان بن سلمة ، وهما من أعلام ثقيف ، إلى جُرَش يتعلّمان صنعة الدبابات والمجانيق والضُّبُور ، ذهبا إلى اليمن حيث صناعة الأسلحة متقدمة ، بعد أن أدركوا أنهم ليسوا بمعزل عن هذا الزحف الكبير ، وانتشار الإسلام السريع ، لذلك أرادوا تهيِئة أنفسهم بتعلُّم صناعة المجانيق والدبابات والضُّبُور لينصبوها دفاعاً عن حصنهم .

ومما لا شك فيه ، أن ضعف وقلة أدوات الحصار لدى المسلمين ، كانا من عوامل انسحاب المسلمين ، وفك الحصار عن الطائف ، وهذا

---

(١) جُرَش : من مخاليف اليمن من جهة مكة ، مدينة عظيمة باليمن . معجم البلدان : جـ ٢ ص ١٢٦ .

(٢) الضَّبْرُ : جلد يُغَشَّى خَشَباً فيها رجال تُقَرَّبُ إلى الحُصون لقتال أهلها ، والجمع ضُبُور . لسان العرب : جـ ٤ ص ٤٨٠ .

ما جعلهم يلتفتون وبعناية عبر العصور إلى تصنيع أسلحتهم بأيديهم وتطويرها وتحسينها .

ملاحظة :

المجانيق : أعظم الآلات الحربيَّة ، وأشدُّها تأثيراً ولا سيا في الحصار، إذ هي بمثابة مدفعية التدمير في عصرنا الحاضر[1] ، ومنها مجانيق قذف الحجارة ، وتعمل على مبدأ الزِّيار، أو الثقل المعاكس ، أو على مبدأ المقلاع .

لم يذكر العرب الجاهليون في أشعارهم المنجنيق ، ولم يتناولوه بالوصف ، ولكنه كان معروفاً في الجاهلية ، استعمله جذيمة الأبرش ، وصنع سلمان الفارسي أثناء حصار الطائف منجنيقاً ، وعني عمر بن الخطاب رضي الله عنه بصناعة المجانيق ، حتى كان لدى الجيش الإسلامي الذي فتح فارس عشرون منجنيقاً ، استخدمت في فتح المدائن عاصمة الفرس . وكذلك جيش خالد وأبي عبيدة الذي فتح الشام ، كان مزوَّداً بالمجانيق ، وجيش عمرو بن العاص صنع المجانيق بعد نزوله في الفسطاط .

واهتم الأُمويون بصناعة المجانيق ، حتى استطاع الحجاج بن

---

(١) راجع للتوسع : « الحياة العسكرية عند العرب » ، إحسان الهندي ، طبع وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، ١٩٦٤ .

يوسف الثقفي صنع منجنيق أسماه (العروس) يحتاج إلى خمسمئة رجل لخدمته ، والعمل عليه ، وقد سَلَّم عدداً منه إلى ابن عمه محمد بن القاسم الثقفي ، ففتح بها مدينة الدَّيْبُل سنة ٨٩ هـ / ٧٠٧ م ، وعدة مدن في وادي السِّنْد[١] .

وما إن بدأ القرن الثاني الهجري حتى أصبح المنجنيق شائع الاستعمال عند المسلمين ، وبخاصة في حصار المدن ، ثم صار في نهاية الأمر سلاحاً عادياً لدى العباسيين ، الذين استخدموه في أغلب معاركهم وبخاصة عمورية سنة ٢٢٣ هـ / ٨٣٧ م .

وكان الجند المسلمون يكبِّرون ويتلون الآيات الكريمة أثناء رميهم بالمجانيق ، فإذا كان المنجنيق يقذف الحجارة قالوا : ﴿ وأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ * مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾[٢] ، وإذا كان المنجنيق يقذف النفط والنار قالوا : ﴿ وأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾[٣] ، ﴿ فَٱعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾[٤] .

---

(١) الفتوحات الإسلاميَّة بعد مضي الفتوحات النبويَّة ، أحمد بن زيني دحلان ، طبعة المطبعة الحسينية في مصر .

(٢) سورة هود ١١ / ٨٢ و ٨٣ .

(٣) سورة الملك ٦٧ / ٥ .

(٤) سورة الملك ٦٧ / ١١ .

وليس المنجنيق هو السّلاح الوحيد الذي صنّعه وطوّره المسلمون، فالدبابة أيضاً والتي هي برج من الخشب الصلب مغلّف باللبود والجلود المنقوعة في الخل كيلا تحترق، وتثبت على قاعدة خشبيّة لها عجلات، فإذا أراد المحاربون العمل بها وصنعوها أمامهم متخذين منها درعاً يقيهم سهام وحجارة الأعداء، أو جلسوا في جوفها ودفعوها وهم بداخلها حتى يصلوا إلى جدار الحصن لينقبوه بما يحملونه من أدوات، بينما يقيهم سقفها مما يرشقهم به الأعداء[1].

وأدخل المسلمون كثيراً من التحسينات عليها، من حيث الصنع، ومن حيث الاستخدام.

الصنع: زادوا حجمها حتى اتسعت لأكثر من عشرة رجال، وقوّوا سقفها وجوانبها الأكثر تَعَرُّضاً لنبال العدو وحجارته بالخشب السميك والحديد والرَّصاص، وجعلوا لها باباً متفصلاً يمكن إذا فُتِح أن يسند إلى حافة السور ويشكل قنطرة يمر عليها الجنود الذين كانوا مختبئين في جوف الدبابة إلى داخل السور خلال الفتحة التي نقبوها.

كما جعلوا في الدبابات سلالم معترضة تنتهي في أعلاها إلى شرفات تقارب السور في الارتفاع، حتى إذا اقتربت الدبابة من السور ولم

---

(١) عرف العرب الجاهليون الدبابة تحت اسم الضُّبر، فهي أداة تصنع من الخشب المغطى بالجلد، يكمن المهاجمون فيها ويقربونها للحصن لقتال أهله وهم فيها، وهي أشبه بالسيارات المدرَّعة اليوم.

يستطع سدنتها خرقه صعدوا إلى الشرفات ، ومدّوا السلالم والقناطر التي توصلهم إلى داخل القلعة باستعلاء السور[1] .

الاستخدام : كانوا يمهدون بالرمي بالمجانيق ، ثم تتقدم الدبابات للاقتحام ، وفطن المسلمون لأهمية « سلاح المهندسين » فرافق الدبابات عدد من الجند الفَعَلة ، حيث كان هؤلاء يكلَّفون بردم الخنادق وإزالة الحواجز التي تعيق سير الدبابات قبل وصولها إلى السور[2] .

وعلّق المسلمون « الكَبْش[3] » بوساطة سلاسل قوية تجري على بكر بسَقف الدبابة أو البرج المخصّص لحمله ، فإذا أراد الجند هدم سور أو باب قلعة ، قرَّبوا رأس الكبش منه ، ثم أخذوا في أرجحته إلى الأمام والخلف بالقوة كلها ، حتى تنهار بعض حجارة السور من تأثير اصطدام رأس الكبش بها ، وعندها يعمدون إلى توسيع هذا الخرق ودعمه لكيلا ينهار على المجاهدين عند مرورهم منه .

---

(١) الحياة العسكرية عند العرب : ص ١٤٤ .

(٢) أهم معركة إسلامية استخدمت فيها الدبابات استخداماً جيّداً هي معركة عموريَّة (٢٢٣ هـ / ٨٣٧ م) ، حيث أمر الخليفة المعتصم بصنع عدد كبير من الدبابات تَتَّسع كل منها لعشرة رجال يدحرجونها فوق الجلود باتجاه السور ، وأمر مفارز الفعلة بأن تردم الخندق المحيط بسور عموريَّة بجلود الغنم المملوءة تراباً كي يمكن الدبابات من الوصول إليه ، وكلَّف مفارز الرجَّالة بحماية من في الدبابة وحماتها الفعلة أيضاً .

(٣) الكبش : عمود مستدير من الخشب بطول يقارب عشرة أمتار يحمل في مقدّمَتِهِ رأساً من الحديد أو الفولاذ على شكل رأس الكبش تقريباً ، ولذا سمي بهذا الاسم .

وطوَّر المسلمون أيضاً صناعة الدروع، ولما جاء الحكم العباسي كانت صناعة الدروع قد بلغت درجة رفيعة من الدِّقة والإتقان، وبلغت هذه الصناعة ذروتها في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي، عندما اقترح أحد العلماء المتخصصين وهو مرضي الطرسوسي مزيجاً معدنياً لصناعة الدروع بحيث لا تؤثر فيها طعنات الرماح، وضربات السُّيوف، ورشقات السِّهام.

والترس: كان منه الدمشقي، والعراقي، والغَرْناطي.

والسيوف: منها اليمانية، والبَصْرِيَّة، والدمشقيَّة، والمصريَّة، والبغداديَّة، والكوفيَّة، والقلعية (القلعة في البادية).. وكتب المسلمون عدة معادلات تُبَيِّن نسبة المزج التي يجب اتباعها للحصول على سيف عربي جيد، أهمها ما كتبه الطرسوسي في كتابه: «تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة من الحروب ومن الأسواء، ونشر أعلام الأعلام في العُدَد والآلات المعينة على لقاء الأعداء»[1].

والرِّماح: عرفها العرب منذ جاهليتهم الأولى، وأوَّل من صنعها «سمهر» وزوجه «ردينة»، ومن هنا نشأت تسمية الرمح لديهم بالسمهري والرديني.

---

(١) مخطوطة في أكسفورد تحت رقم ٢٦٤، ومنها نسخة مصوَّرة في مكتبة المتحف الحربي في القاهرة.

والحسك الشائك : الذي يُصَنَّع من قطع من الحديد أو الخشب ، لها عدة شُعَب بحيث يبقى منها سن مرتفع كيفما وقعت على الأرض ، وهي تطرح حول المعسكرات لعرقلة خيل العدو حين تقدُّمِها ، وكان رسول الله ﷺ أول من استعمل الحسك الشائك في الإسلام عند حصار الطائف .

وصناعة السفن : بدأت أيام الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه بشكل جدي ، وازدهرت هذه الصناعة أيام عبد الملك بن مروان عندما أمر بإنشاء دار لصناعة السفن في تونس ، فبناها عامله على إفريقية حسان بن ثابت ، ثم تابع الأُمويون بناء دور الصناعة في شتى بقاع الدولة العربية الإسلامية ، وأهمها تلك التي أُنشئت في جزيرة الروضة بمصر سنة ٥٤ هـ ، وأُخرى في مدينة بيروت ، وثالثة في مدينة عكا ، ورابعة في مدينة صور..

وفي القرن السادس الهجري ، وعلى يد أحمد الصقلّي ، وبتوجيه من السلطان الموحِّدي يوسف بن عبد المؤمن ، بلغت قوة المسلمين البحريَّة مالم تبلغه قبله ولا بعده .

وبلغت دقةُ صناعة السفن حَدّاً عظيماً ، حتى صنع المسلمون سفناً خاصة بالعمل في البحر المتوسط ، وسفناً أُخرى للعمل في البحر الأحمر ، وأُخرى للعمل في المحيط الهندي ، وبلغت أنواع السفن أكثر من ثلاثين نوعاً حسب حاجتها ، منها : البوصي ، البارجة ، البطسة ، الحرَّاقة ، الخليَّة ، الشُّونة .

سقنا هذه اللمحة عن الصناعة الحربيَّة العربيَّة الإسلاميَّة بمناسبة حصار الطائف واستخدام المنجنيق والدبَّابة والحسك الشائك في هذا الحصار، والذي نريد قوله في ختام هذه الملاحظة: عن عليٍّ رضي الله عنه قال: «كانت بيد رسول الله ﷺ قوسٌ عربيَّة، فرأى رجلاً بيده قوسٌ فارسيَّة، فقال: ماهذه؟ ألقها، وعليكم بهذه وأشباهها، ورماح القنا، فإنَّهما يزيدُ اللهُ لكم بهما في الدين، ويمكِّن لكم في البلاد»[1]، ففهم المسلمون أنَّهم لا يمكنهم إقامة صرح دولة عالميَّة مرهوبة الجانب، متينة البنيان، إلا بعد تحقيق «**تصنيع السلاح وطنيّاً**»، فأقاموا دور صناعته، وهذا ما لاحظه الجاهليون أيضاً، فأرسلوا عروة وغيلان إلى اليمن لتحقيقه.

ولن تنهض الأُمَّة من هجعتها إلا عندما تتيقَّن أن العلوم التي دعا إليها الإسلام مفروضة على أبنائها كالصلاة والصوم، ومنها تصنيع سلاحها بيدها وتطويره ليضاهي أحدث سلاح عالمي معاصر.

لقد آن لنا أن تعانق مداخن مصانعنا الحربيَّة المتقدِّمة والمتطوِّرة مآذنَ مساجدنا، لتحمي تلك المصانع بما تنتجه هاتيك المآذن.

☆ ☆ ☆

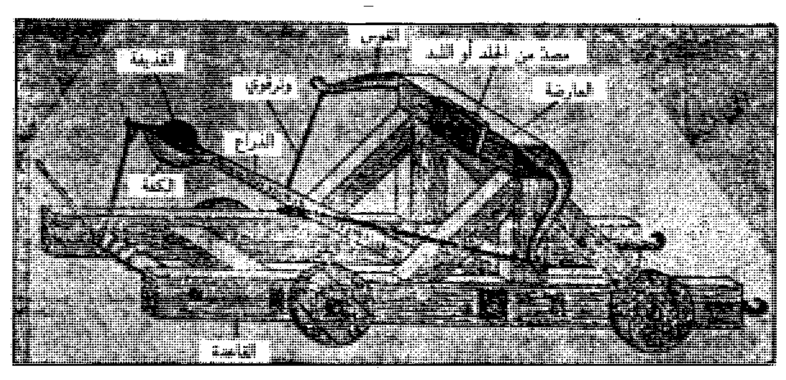
---

(١) ابن ماجه: الجهاد ٢٨١٠ ص ٩٣٩، وخصَّ رسول الله ﷺ القوسَ العربيَّة لأن رقعة الدولة العربية الإسلامية كانت جزيرة العرب فقط، فروح الحديث تحض على السلاح بأيدٍ وطنية، ورفض المستورد منه، والمهم تصنيعه في أرض الإسلام، وعدم الإعجاب والتعظيم والاعتماد على الأجنبي المستورد.



الدبابة العربيّة « عن السّلاح في الإسلام »

[لاحظ الكبش المعلق داخل الدبابة]



منجنيق لقذف الحجارة يعمل على مبدأ « الزّيار »

« عن الفن الحربي في صدر الإسلام »

غنائم هوازن بالجعرانة

☆ « إنَّ المَثَلَ الأَعْلَى ٱلَّذِي ضَرَبَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ في حياته الكاملة مِنَ الأَخلاق العالِيَةِ ، والزُّهدِ في الأَمْوالِ والملذَّات ، شَيْءٌ لا مثيل له في التاريخ » .

[الإسلام يتحدى : ص ١٠٥]

ونزل رسول الله ﷺ بعد قفوله من الطائف الجِعْرانة فيمن معه من المسلمين ، ومعه من هوازن سَبْي كثير، « وكان السبي ستة آلاف رأس ، والإبل أربعة وعشرون ألف بعير، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة ، وأربعة آلاف أُوقية فضة »[١] .

وأرسل ﷺ رجلاً إلى مكّة ليشتري للسبي ثياباً ، فلا يخرج الحر منهم إلا كاسياً ، فكسى السبي قبطية قبطية[٢] .

---

(١) ابن سعد : جـ ٢ ص ١٥٢ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٨٧ ، السِّيرة الحلبيَّة : جـ ٣ ص ١٣٦ .

(٢) السِّيرة الحلبيَّة : جـ ٣ ص ١٤٦ ، السِّيرة النبويَّة والآثار المحمديَّة : جـ ٢ ص ٣٥٧ .

وبالجِعْرانة أتاه وفد هوازن وقد أسلموا ، فقالوا : يـا رسول الله ، إنـا أهلٌ وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء مالم يخفَ عليك ، فامنُنْ علينـا مَنَّ الله عليك .

وقـام خطيبهم زهير بن صُرَد أبو صرد ، فقـال : يـا رسول الله ، إنَّما في الحظـائر من السَّبـايـا عمَّـاتـك وخـالاتـك وحـواضنـك الـلاتي كُنَّ يَكْفُلْنَك[1] ، ولو أنَّا مَلَحْنا[2] للحارث بن أبي شَمِر أو النعمان بن المنذر ثم أصابنا منها مثلُ الذي أصابنـا منـك رجونـا عـائـدتها وعَطْفَها ، وأنت رسول الله خير المكفولين . «إن التـاريخ على طوله لم يشهـد رجلاً أَدْلى خصومه بآراء مثـاليـة عن سيرتـه وحيـاتـه مثلمـا أَدْلى بـه خصوم رسول الإسلام»[3] .

ثم أنشأ زهير بن صُرَد[4] يقول :

اْمنُنْ علينـــا رســولَ اللهِ في كَرَمٍ	فـإنَّـكَ المرءُ نَرْجـوه ونَـدَّخِرُ[5]
اْمنُنْ على بَيْضَةٍ قـد عـاقهـا قَـدَرٌ	مُمَــزَّقٌ شَمْلُهَـا في دهرِهَـا غِيَرُ

(١) عماته وخالاته ﷺ من الرضـاع ، وكان في السبي أبو برقـان عم رسول الله ﷺ من الرضـاعة أيضاً . ابن سعد : جـ ٢ ص ١٥٣ .

(٢) ملحنا : أرضعنا ، والملح هنا الرضاع . قال ابن هشام : ويروى : « ولو أنَّا مالحنا » .

(٣) الإسلام يتحدى : ص ١٠٣ .

(٤) الصُرَد لغة : طائر فوق العصفور يصيد العصافير ، أو بيـاض يكون على ظهر الفَرَس أو على سنام البعير . لسان العرب : جـ ٣ ص ٢٥٠ .

(٥) في السِّيرة النبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٦٦٨ : « نرجوه وننتظر » .

أَبْقَتْ لنا الدهر هَتَّافاً على حَزَنٍ على قلوبهم الغَمَّاءُ والغمرُ

إن لم تداركها نَعْمَاءُ تنشرها يا أرجح الناس حِلْماً حين يُختَبَرُ

اَمنُنْ على نسوةٍ قد كنتَ تَرْضعها إذْ فُوكَ تملؤه من مَحضِها الدُّررُ

إذْ أنتَ طِفْلٌ صغير كنتَ تَرْضَعُها وإذ يزينُكَ ما تأتي وما تَذَرُ[1]

لا تجعلنَّا كَمَنْ شالت نعامته واستبقِ منا فإنّا معشرٌ زُهُرُ[2]

إنا لنشكر للنُعْمى وقد كُفِرت وعندنا بعد هذا اليوم مُدَّخَرُ

فألْبِسِ العفوَ من قد كنتَ تَرْضَعَه
من أُمهاتك إن العفو مشتهرُ[3]

يا خير من مرجت كمت الجيادُ بهِ عند الهياج إذا ما استوقد الشَّرَرُ

إنا نُؤَمل عفواً منك تُلْبسُهُ هذي البريَّة إذ تعفو وتنتصرُ

فاعفُ عفا الله عما أَنْتَ راهبُهُ
يوم القيامة إذ يُهْدي لك الظفرُ[4]

---

(١) هذا البيت برواية : عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٩٧ .

(٢) هذا البيت ، والذي يليه رواية الاكتفاء : جـ ١ ص ١٤٨ / ب .

(٣) في الاكتفاء : جـ ١ ص ١٤٨ / ب : « إن العفو يُشْتَهَرُ » .

(٤) الأبيات الثلاثة السابقة رواية عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٩٧ ، ولأخبار غنائم هوازن راجع المصادر التالية : الاكتفاء : جـ ١ ص ١٤٨ / أ و ب ، عيون الأثر ، جـ ٢ ص ١٩٧ ، الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١٨٢ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٣٥٢ ، ابن هشام : جـ ٤ ص ٩٨ ، الطبري : جـ ٣ ص ٨٦ ، السِّيرة النبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٦٦٧ و ٦٦٨ و ٦٦٩ ، ابن سعد : جـ ٢ ص ١٥٢ ، ابن خلدون : جـ ٢ ص ٤٨ ، السِّيرة النبويَّة والآثار المحمديَّة : جـ ٢ ص ٣٥٧ .

فقال رسول الله ﷺ : « أحب الحديث إلي أصدقه ، فاختاروا إحدى الطائفتين ، إما السَّبي وإما المال » ، « معي من ترون ، نساؤكم وأبناؤكم أحبُّ إليكم أم أموالكم ؟ » ، « وقد كنت استأنيت لكم » ، وكان رسول الله ﷺ انتظرهم بضع عشرة ليلة حين قفل من الطائف . فقالوا : يا رسول الله ، خيَّرتنا بين أحسابنا وأموالنا ، ما كنا نعدل بالأحساب شيئاً ، بل ترد علينا نساءنا وأبناءنا فهم أَحب إلينا[1] .

فقال رسول الله ﷺ : « أمَّا ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم ، وإذا أنا صلَّيتُ بالناس فقوموا فقولوا : إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين ، وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا ، فإني سأُعطيكم عند ذلك وأسأل لكم » .

فلما صلَّى رسول الله ﷺ بالناس الظهر ، قاموا فقالوا ماأمرهم به رسول الله ﷺ ، فقام ﷺ في المسلمين ، وأثنى على الله بما هو أهله ، ثم قال : « أما بعد ، فإن إخوانكم هؤلاء قد جاؤوا تائبين ، وإني قد رأيت أن أَردَّ إليهم سَبْيَهم ، فمن أحبَّ أن يطيّب ذلك فليفعل ، ومن أَحب منكم أن يكون على حَظِّه حتى نعطيه إياه من أَول مال يفيء الله علينا به فليفعل » ، « وليكن ذلك قرضاً علينا ست فرائض من أول ما يُفيء الله علينا » .

---

(١) السِّيرة النبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٦٧٠ .

فقال المهاجرون : وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ .

وقالت الأنصار : وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ .

وهـذا إيمـان وتسليم وانقيـاد الرعيل الأول ، هواهم من هوى رسول الله ﷺ ، ورغبات رسول الله ﷺ أوامر عندهم . أما الأقرع بن حـابس فقال : أما أنا وبنو تميم فلا .

وقال عُيَينَة بن حصن : أما أنا وبنو فَزَارة فلا .

وقـال العبـاس بن مِرْداس السُّلمي : أمـا أنـا وبنو سُلَيم فلا ، ولكن بنـو سليم من المسلمين الصـادقين ، لا يخـالفـون رغبـة رسـول الله ﷺ ، فقالوا : بل مـا كان لنـا فهو لرسول الله ﷺ ، فقـال العبـاس بن مرداس لبني سليم : وهنتموني ، أي أضعفتم موقفي .

الأَقرع بن حـابس : أَسلم بعـد الفتـح الأعظم ، من المـؤلفـة قلوبهم ، وهو وأمثالـه أُنـاس خـام كالفِلِز ، كالمعـدن الخـام ، وشتـان بين المعـدن الخـام ، والمعـدن النقي من الشوائب . فمن آمن وصـدق وصحب رسول الله ﷺ قلباً وفكراً ، معدن صـاف ثمين ، مُصَنَّع ، سيـارة تسـابق الريح ، أو طـائرة تسمو فـوق السحـاب ، ومثـل هـذا لا يكـون إلا بعـد تربية وتزكية ونضج في الفكر والروح .

وعيينـة بن حِصْن : من الأعراب الجفـاة ، أسلم بعـد الفتـح الأعظم لساناً ، ثم ارتد وتبع طُلَيحة الأسدي . لذلـك قـال ﷺ : « معي

من ترون » من الأعراب ، وقال ﷺ : « من بَدَا جَفَا » ، أي من نزل البادية صار فيه جفاء الأعراب[1] : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾[2] ، وجعل الإسلام « التَّعَرُّبَ بعد الهجرة » من الكبائر ، أي العودة إلى البادية والإقامة مع الأعراب بعد الهجرة إلى رسول الله ﷺ[3] .

الأعرابي : أي غير المتحضّر ، غير المتعلّم ، غير المثقّف ثقافة العربي في الحضر ، فالعربي يستقيم أمره ، وتصبح طاقاته سليمة الاتجاه ، تحقّق هدفاً حضارياً سامياً إذا لُقّح عقله بفكر وثقافة الإسلام ، وامتزج قلبه وروحه بنور الله عز وجل .

وقال رسول الله ﷺ إرضاءً للطرفين (لهوازن ولبني تميم وبني فزارة) : « من أمسك منكم بحقّه فله بكل إنسان ستة فرائض من أَوّل فيء نُصيبُه » فَرَدُّوا إلى الناس نساءهم وأبناءهم[4] .

---

(١) الأعرابي غير العربي الذي يعتز الإسلام والقرآن الكريم به .

(٢) سورة الحجرات ٤٩ / ١٤ .

(٣) قال الحجاج لسلمة بن الأكوع مستنكراً عندما خرج إلى البادية والإقامة مع الأعراب : ارتددت على عقبيك ؟ تعرَّبت ؟ أي صرت من الأعراب ، فقال سلمة : لا ، ولكن رسول الله ﷺ أذن لي في البدو ، أي إنه لم يذهب إلى الأعراب إلاّ بعد إذن خاص من رسول الله ﷺ ، مما يدل على أهمية الأمر وخطورته .

(٤) الاكتفاء : جـ ١ ص ١٤٨ / ب ، الطبري : جـ ٣ ص ٨٧ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٣٥٤ ، السّيرة الحلبيَّة : جـ ٣ ص ١٤٥ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٩٦ ، ابن هشام : جـ ٤ ص ١٣٨ .

والملاحظ أنه ﷺ سيعطي من أوّل فَيء، لا من أوّل غنيمة، لأن الغنيمة من حقّ المقاتل، والفيء للدولة.

☆ ☆ ☆

«ما ألْفيتُمُوني بخيلاً وَلا جَبَاناً وَلا كَذَّاباً»:

ثم ركب رسول الله ﷺ واتبعه الناس وتعلّقت به الأعراب يقولون: يا رسول الله، اقسم علينا فَيْئنا - الإبل والغنم وهي أربعة أخماس الغنائم - حتى اضطروه إلى شجرة، فانتزَعت رداءه، فقال: «أيها الناس، ردُّوا عليَّ ردائي، فوالذي نفسي في يده، لو كان لكم عندي عدد شجر تهامة نَعَماً لقسمته عليكم»، «فلو كان عدد هذه العضاة نعماً لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذوباً ولا جباناً»، «وما ألفيتموني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً»[1].

ثم قال رسول الله ﷺ إلى جنب بعير، فأخذ وَبَرَةً من سنامه فجعلها بين إصبعيه، ثم رفعها فقال: «أيُّها الناس، إنَّه والله ليس لي من فيئكم ولا هذه الوبرة، إلا الخمس والخمس مردودٌ عليكم، فأدُّوا الخِياط

(١) الاكتفاء: جـ ١ ص ١٤٩ / أ، الكامل في التاريخ: جـ ٢ ص ١٨٣، ابن هشام: جـ ٤ ص ١٠١، السِّيرة الحلبيَّة: جـ ٣ ص ١٣٨، الطبري: جـ ٣ ص ٨٩.

والمخيط[1] ، فإن الغلُول عار ونار وشَنار يوم القيامة » .

هذا الزهد ، وهـذا السمو الخلقي الفريـد ، ليس استثنـاءً في حيـاة رسول الله ﷺ ، وإنّما هما حياته بـأكملهـا ، كان يمرُّ الهلال ، ثم الهلال ، ثم الهلال ، ثلاثة أهلةِ في شهرين وما تُوقَدُ في أبيـات رسول الله ﷺ نـارٌ. ولما سأل عروة عائشـة : فمـا كانت معيشتكم يـاخـالـة ؟ قـالت رضي الله عنها : الأسودان ، التمر والماء ، وكان لنا جيران من الأنصار لهم ربائب[2] يسقوننا من لبنها جزاهم الله خيراً .

وفي حديث آخر ذكرت عائشة : أن آل محمـد لم يشبعوا ثلاثـة أيـام متوالية من طعام بُرٍّ[3] حتى مضى النبي ﷺ لسبيله .

صلى الله عليـه وسلم ، فـلا ترف ولا نعيم ، وقـد كان بـإمكانـه أن يعيش حياة أُخرى ، حيـاة العيش الرخي ، ولكنـه آثر أن يكون عبـداً نبياً ، ورفض أن يكون ملكاً نبياً .

ولمـا سمـع المسلمـون مـاقـالـه رسـول الله ﷺ : « فـأَدُّوا الخِيـاط والمخيط .. » ، جاء رجل من الأنصـار بكُبَّـة[4] من خيوط شعر ، وقـال :

---

(١) الخِياط : الخيط ، والمخيط : الإبرة .

(٢) الرَّبِيبةُ : واحدة الرَّبـائب من الغنم التي يربيهـا النـاس في البيوت لألبـانهـا ، وغَنَمٌ ربـائبُ : تربط قريباً من البيوت وتعلف لاتُسامُ . لسان العرب : جـ ١ ص ٤٠٢ .

(٣) البُرُّ : الحنطة ، القمح . لسان العرب : جـ ٤ ص ٥٥ .

(٤) الكُبَّة : الخيوط المجتمعة ، كُبَّةُ الغزل : ماجُمِعَ منه . لسانِ العرب : جـ ١ ص ٦٩٦ .

يا رسول الله ، أخذتُ هذه لأخيط بها برذعة بعير لي دَبِر[1] ، فقال رسول الله ﷺ : « أما حقِّي (نصيبي) منها فلك » ، فقال الرجل : أما إذا بلغ الأمر فيها فلا حاجة لي بها ، فرمى بها من يده .

ودخل عقيل بن أبي طالب يوم حنين على امرأته فاطمة بنت شيبة ، وسيفه متلطِّخ دماً ، فقالت : إني قد عرفت أنَّك قد قاتلت ، فماذا أصبتَ من غنائم المشركين ؟ قال : دونَكِ هذه الإبرة تخيطين بها ثيابك ، فدفعها إليها ، فسمع منادي رسول الله ﷺ يقول من أخذ شيئاً فليردّه حتى الخائط والمخيط ، فرجع عقيل فقال : ما أرى إبرتك إلا قد ذهبت ، فأخذها وألقاها في الغنائم[2] .

أي عَدَالَةٍ ، وأي دِيمُقْراطِيَّةٍ هذه ؟

قال عبد الله بن أبي بكر : إن رجلاً ممن شهد حنيناً قال : والله إني لأسير إلى جنب رسول الله ﷺ على ناقة لي ، وفي رجلي نعل غليظة ، إذ زحمت ناقتي ناقةَ رسول الله ﷺ ، ويقع حرفُ نعلي على ساق رسول الله ﷺ فأوجعته ، فقرع قدمي بالسوط ، وقال : « أوجعتَني فتأخَّرْ

---

(١) الدَّبِر : المقروح . والدَّبَرَةُ : قَرْحَةُ الدابة والبعير ، ودَبِرَ البعير يَدْبَرُ دَبَراً فهو دَبِرٌ وأَدْبَرُ ، والأنثى دَبِرَةٌ ودَبْراءُ ، لسان العرب ، جـ ٤ ، ص ٢٧٣ .

(٢) الاكتفاء ، جـ ١ ، ص ١٤٩ / ١ .

عني » ، فانصرفت ، فلما كان الغد إذا رسول الله ﷺ يلتمسني ، قال : قلت : هذا والله لِمَا كنت أصبت من رجل رسول الله ﷺ بالأمس . قال : فجئته وأنا أتوقَّع ، فقال لي : « إنك قد أصبتَ رجلي بالأمس فأوجعتني ، فقرعت رجلك بالسوط ، فدعوتُك لأُعوِّضك منها » ، فأعطاني ثمانين نعجة بالضربة التي ضربني[1] .

ٱلْمُؤَلَّفَةُ قُلُوبُهُمْ :

ثلاثة أصناف :

١ ـ صنف أعطاهم رسول الله ﷺ من الغنائم يتألَّفهم ليسلموا ، كصفوان بن أُميَّة ، وهؤلاء بإسلامهم خير كبير للإسلام وأهله .

٢ ـ وصنف أعطاهم ليثبت إسلامهم ، كأبي سفيان بن حرب ، « إني لأُعطي الرَّجُلَ ، وغيره أحب إليَّ منه ، خشية أن يكبَّ في النار على وجهه » .

٣ ـ وصنف لدفع شَرِّهم كعيينة بن حصن ، وعباس بن مرداس ، والأقرع بن حابس ، وهؤلاء أعطاهم ﷺ كي يوفِّر عامل الزمن عليه وعلى المسلمين ، وعدم إضاعته في معارك جانبيَّة

(١) الطبري : جـ ٣ ص ٩٣ ، السِّيرة النبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٦٧٢ .

معهم ، والالتفات إلى أُمور أبعد مدى ، وأكبر أثراً في جزيرة العرب وخارجها . مع التأكُّد أن سيل الإسلام يطوقهم ويضيِّق عليهم بإسلام أتباعهم ورجالهم وقبائلهم ، وسيجدون أنفسهم بعد زمن قصير أنهم وحدهم ، وقد كسب الإسلامُ مَنْ حولهم جميعاً .

وعطاء هؤلاء جميعاً - وقد بلغ عددهم ثلاثين رجلاً[1] - كان من الخُمْس ، وهو أثبت الأَقوال ، لأنَّه ﷺ أمر زيد بن ثابت بإحصاء الناس والغنائم ، ثم وزَّعها على الناس ، فكانت سِهْمَانهم لكل رجل أربعاً من الإبل ، أو أربعين شاة ، فإن كان فارساً أخذ اثني عشر بعيراً أو مئة وعشرين شاة ، وإن كان معه أكثر من فَرَس واحد ، لم يسهم له إلا مرّة واحدة[2] .

فكل الذي أُعطي ، أُعطي من الخُمْس « الذي هو سهمه ﷺ ، لا من أربعة أخماس الغنيمة ، وإلاَّ لاستَأْذَنَ الغانمين في ذلك ، لأنهم ملكوها بحوزهم لها » .

(١) ابن هشام ، جـ ٤ ، ص ١٠٣ .

(٢) عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٩٤ ، الطبري ، جـ ٣ ، ص ٨٩ : « أيُّها الناس ، إنه والله ليس لي من فيئكم ولا هذه الوبرة ، إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم » ، السِّيرة الحلبية ، جـ ٣ ، ص ١٣٩ ، عيون الأثر ، جـ ٢ ، ص ١٩٤ ، ابن خلدون : جـ ٢ ص ٤٨ : « أعطى المؤلَّفة من الخمس ، أما الباقي فوزَّع على المسلمين » .

ومن الذين أعطاهم رسول الله ﷺ :

أبو سفيان بن حرب ، أعطاه أربعين أوقية من الفضة ، ومئة من الإبل . فقال أبو سفيان : وابني يزيد ؟ فأعطاه ﷺ أربعين أوقية من الفضة ، ومئة من الإبل . فقال أبو سفيان : وابني معاوية ؟ ، فأعطاه ﷺ أربعين أوقية من الفضة ، ومئة من الإبل . فقال أبو سفيان : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، لأنت كريم في الحرب وفي السِّلم ، لقد حاربتك فنعم المحارب كنت ، وقد سالمتك فنعم المسالم أنت ، هذا غاية الكرم ، جزاك الله خيراً .

وحكيم بن حزام ، أعطاه ﷺ مئة من الإبل[1] ، فسأله حكيم مئة أُخرى فأعطاه ، ثم سأله مئة أخرى فأعطاه ﷺ وقال له : « يا حكيم ، هذا المال خضر حلو[2] ، من أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يُبَارَك له فيه ، وكان كالذي يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلى » . فأخذ حكيم المئة الأولى ، وترك ما عداها ، وقال حكيم : يا رسول الله ، والذي بعثك بالحق نبياً لا أرزؤك[3] ولا أحداً بعدك شيئاً ، حتى أُفارق الدنيا . فكان أبو بكر رضي الله عنه يدعو حكيماً ليعطيه العطاء فيأبى أن يقبل منه شيئاً ، ثم إن عمر بن الخطاب

---

(١) أُسد الغابة : جـ ٢ ص ٤٥ و ٤٦ ، السِّيرة الحلبيَّة : جـ ٣ ص ١٣٧ .

(٢) في أُسد الغابة : خضرة حلوة .

(٣) أرزأ : لاأُنقص مالك بالطلب منك .

رضي الله عنه دعاه ليعطيه، فأبى أن يقبله، فقال عمر: يا معشر المسلمين، إني أعرض عليه حقّه الذي قسم الله له من هذا الفيء، فيأبى أن يأخذه، فما سأل حكيم أحداً شيئاً، إلى أن فارق الدنيا.

«أصحاب المِئِين»:

وأعطى رسول الله ﷺ مئة من الإبل للنُّضير بن الحارث بن كَلَدة بن علقمة، والعلاء بن حارثة[1] الثقفي، والحارث بن هشام، وحُوَيطب بن عبد العُزّى بن أبي قيس، وعَلْقمة بن عُلاثة، وجبير بن مطعم، وسهيل بن عمرو، وصفوان بن أُمية ـ الذي قال: «ما زال رسول الله ﷺ يعطيني من غنائم حنين وهو أبغض الخَلْق إليَّ حتى ما خلَق الله شيئاً أَحبَّ إليَّ منه»[2]، وهذه ثمرة سريعة القطاف من عطاء المؤلفة قلوبهم ـ والأقرع بن حابس التميمي..

ومن أُعطوا مئة من الإبل عرفوا بأصحاب المئين.

وأعطى رسول الله ﷺ عباس بن مرداس السُّلمي دون المئة، فقال معاتباً رسول الله ﷺ:

كَانت نِهاباً تَلافَيْتَها ... بِكَرّي على المُهْرِ في الأَجْرَعِ[3]

---

(1) أسد الغابة: جـ ٤ ص ٧٣، وورد اسمه في بعض المصادر: العلاء بن جارية الثقفي.

(2) السِّيرة النبويّة لابن كثير: جـ ٣ ص ٦٨٣، البداية والنهاية: جـ ٤ ص ٣٦٠.

(3) الأَجْرَعُ: المكانُ الواسع الذي فيه حُزونةٌ ـ شبه الرمل ـ وخُشونة. لسان العرب: جـ ٨ ص ٤٦ و ٤٧، ونهاباً: يعني بها الغنائم.

وَإيقاظِي القَوْمَ أن يَرْقُدوا ... إذا هَجَعَ النَّاسُ لم أَهْجَعِ[1]

فأصْبَحَ نَهْبي ونَهْبُ العُبَيْـ ... ـدِ بَيْنَ عُيَيْنَةَ والأَقْرَعِ[2]

وقد كنتُ في الحَرْبِ ذا تُدْرَإٍ ... فلم أُعْطَ شيئاً وَلَمْ أُمْنَعِ[3]

إلاَّ أفايِلَ[4] أُعْطِيتُها ... عَديدَ قوائمِها الأَرْبَعِ

وما كانَ حِصْنٌ ولا حَابِسٌ ... يَفُوقانِ مِرْداسَ في المَجْمَعِ

وما كُنْتُ دونَ امْرِئٍ مِنْهُمَا ... وَمَنْ تَضَعِ اليَوْمَ لا يُرْفَعِ[5]

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال له: «أنتَ القائل: أصبح نَهْبي ونهب العبيد بين الأقرع وعُيينة؟»، فقال أبو بكر رضي الله عنه: ما هكذا قال يا رسول الله، ولكن والله ما كنتَ بشاعر وما ينبغي لك، أشهد أنك كما قال الله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾[6]، فقال ﷺ: «كيف قال؟»، فأنشده أبو بكر، فقال رسول الله ﷺ: «هما

---

(١) في البداية والنهاية: وإيقاظي الحَيَّ، وهجع: نام واستراح. الاكتفاء: جـ ١ ص ١٤٩ / أ.

(٢) يعني عيينة بن حصن، والأقرع بن حابس التيمي، والعُبَيْدُ: فَرَسُه.

(٣) في البداية والنهاية: ذا تدرئ، وتدرأ القوم: تدافعوا في الخصومة ونحوها واختلفوا. لسان العرب: جـ ١ ص ٧١، ٧٢، وفي اللسان ورد الشطر الأول كما يلي: «وقد كنتُ، في القوم، ذا تُدْرَإٍ»، وهنا المعنى: كنت أدفع الأعداء بقوة.

(٤) وفي السِّيرة النبوية لابن كثير: جـ ٣ ص ٦٨١: «إلاَّ أفائِلَ»: وهي صغار الإبل، واحدها: أفيل.

(٥) الاكتفاء: جـ ١ ص ١٤٩ / أ، البداية والنهاية: جـ ٤ ص ٣٥٩، السِّيرة النبويَّة لابن كثير: جـ ٣ ص ٦٨١، الطبري: جـ ٣ ص ٩١.

(٦) سورة يس ٣٦ / ٦٩.

سواء ، ما يضرُّك بأيهما بدأت » ، ثم قال رسول الله ﷺ : « اقطعوا عني لسانَه » ، فخشي بعض الناس أن يُفْهَمَ من قول رسول الله ﷺ المثلة به ، فَوَضّح الأمر ، فأعطوه حتى رضي ، فكان ذلك قطع لسانِه .

وأعطى ﷺ دون المئة رجالاً من قريش ، منهم : مَخْرمة بن نوفل بن أهيب الزهري ، وعمير بن وهب الجمحي ، وهشام بن عمرو أخو بني عامر بن لؤي ، وسعيد بن يربوع بن عَنْكَثَة بن عامر بن مخزوم ، وعدي بن قيس السَّهْمّي[1] ..

« وَكَلْتُ جُعَيْلَ بنَ سُرَاقة إلى إسْلامِهِ » :

وقال رجل لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ، أعطيت عيينة والأقرع مئةً مئةً ، وتركت جُعيل بن سُرَاقة الضَّمْري[2] ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أما والذي نفس محمد بيده لجعيل بن سراقة خيرٌ من طِلاع[3] الأرض كلهم مثل عُيَيْنَة بن حصن ، والأقرع بن حابس ، ولكني

---

(١) عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٩٣ ، السّيرة الحلبيَّة : جـ ٣ ص ١٢٧ ، السّيرة النبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٦٨٠ .

(٢) جُعَيْلُ بن سُرَاقة الغفاري الضَّمْري ، من أهل الصُّفَّة وفقراء المسلمين ، أسلم قديماً ، شهد مع رسول الله ﷺ أحُداً ، وأُصيبت عينه يوم قريظة ، أثنى عليه رسول الله ﷺ ، ووكله إلى إيمانه . أُسد الغابة : جـ ١ ص ٣٣٨ .

(٣) أي : خير مما يملؤها حتى يطلع عنها ويسيل .

تَأَلَّفْتُهُمَا لِيُسْلِما ، ووكلت جُعَيْلَ بن سراقة إلى إسلامه »[1] .

إذا انحبس المطر تموت النباتات ذات الجذور السطحيَّة ، كالحشائش ، أما الأشجار الباسقة ، ذات الجذور العميقة ، فتبقى حَيَّة مخضوضرة مثمرة ، والمؤلفة قلوبهم من الصنف الأول ، وجُعَيل والمسلمون الأُوَل من الصنف الثاني .

لم يعط رسول الله ﷺ أكابر المهاجرين والأنصار ، مع استحقاقهم جميعاً ، لرسوخ الإيمان في قلوبهم ، فَوَكَلَهم إلى إيمانهم ، فكان في قسمها على المؤلفة استجلاب قلوبهم وقلوب أتباعهم ، الذين كانوا يرضون إذا رضي رئيسهم ، فيكون سبباً لإسلامهم ، وتقوية قلب من دخل في الإسلام منهم ، فيتبعهم من دونهم ، فكان فيه مصلحة عظيمة[2] ، وهذا يذكر أيضاً بفتح مكة ، حيث أبقى رسول الله ﷺ ما فيها بيد أهلها ، ولم يقسم من أموال مكَّة شيئاً ، مع احتياج المسلمين إلى المال الذي يعينهم على ما هم عليه .

إن عطاءَ المؤلفة قلوبهم ، عطاءٌ كيلا تزل أقدام بعد ثباتها .
ولكيلا تتزعزع قلوب بعد دخولها في الإسلام .
ولكيلا تميل نفوس عن الحق ، وهي حديثة بِشِركٍ وجاهلية .

---

(١) الروض الأُنف : جـ ٤ ص ١٦٩ ، الطبري : جـ ٣ ص ٩١ ، السِّيرة النبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٦٨٢ ، السِّيرة الحلبيَّة : جـ ٣ ص ١٣٧ و ١٣٨ ، ابن هشام : جـ ٤ ص ١٠٤ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٣٦٠ .

(٢) السِّيرة النبويَّة والآثار المحمديَّة : جـ ٢ ص ٣٦٠ .

ما مقالة بلغتني عنكم

☆ « لا تُؤذوا الأنصار ، فمن آذاهم فقد آذاني ، ومن نصرهم فقد نصرني ، ومن أحبَّهم فقد أحبّني ، ومن أبغضهم فقد أبغضني ، ومن بغى عليهم فقد بغى عَلَيّ ، ومن قضى لهم حاجة ، كنتُ في حاجتِهِ يوم القيامة أسرع إلى الله » .

رسول الله ﷺ

قال ناس من الأَنصار حين أفاء الله على رسوله ما أَفاء من أموال هوازن ، وأعطى المؤلَّفة قلوبهم ما أعطى : يغفر الله لرسول الله ﷺ ، يُعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم ؟! والله إن هذا لهو العجب ، سيوفنا تقطر من دمائهم ، وهم يذهبون بالمغنم ؟ إذا كانت شديدةً فنحن نُدْعى[1] ، وَيُعْطى الغنيمة غيرنا ؟! لقي والله رسولُ الله قومَهُ[2] .

---

(١) إشارة إلى نداء رسول الله ﷺ : « يامعشر الأنصار » قالوا : لبيك يارسول الله ، نحن معك » يوم حنين .

(٢) راجع : الاكتفاء : جـ ١ ص ١٤٩ / ب ، الطبري : جـ ٣ ص ٩٣ ، السّيرة النبويّة لابن =

وقال رجل من الأنصار لأصحابه : أَما والله لقد كنت أُحَـدِّثكم أَنَّـه لو استقامت الأُمور قد آثَرَ عليكم ، فردُّوا عليه رَدّاً عنيفاً .

ومشى سعـد بن معـاذ رضي الله عنـه إلى رسـول الله ﷺ فقـال : يا رسول الله ، إن هذا الحيَّ من الأَنصار قد وجدوا في أنفسهم .

فقال ﷺ : « فِيمَ ؟ » .

قال سعد : فيما كان مِنْ قَسْمـك هـذه الغنـائم في قومـك ، وفي سـائر العرب ، ولم يكن فيهم من ذلك شيء .

فقال رسول الله ﷺ : « فأَين أنتَ من ذلك ياسعد ؟ » .

قال سعد : ماأَنا إلاَّ ٱمرؤ من قومي .

فقال رسول الله ﷺ : « فـاجمع لي قومـك في هـذه الحظيرة ، فـإذا اجتمعوا فأعلمني » .

فاجتمع الأنصار في قبَّـة حتى ملؤوهـا ، ولم يُـدْعَ معهم غيرهم ، ولمـا اجتمعوا ، قال سعد بن عبادة : يا رسول الله قد اجتمع لـك هـذا الحيُّ من الأنصار حيث أمرتني أن أجمعهم ، فقام إليهم رسول الله ﷺ ، ثم سألهم : « فيكم أَحَـدٌ من غيركم ؟ » ؟ قـالوا : لا ، إلاَّ ابن أُخت لنـا ، فقـال ﷺ : « ٱبن أخت القوم منهم » .

= كثير : جـ ٣ ص ٦٧٤ ، ابن سعـد : جـ ٢ ص ١٥٤ ، عيـون الأثر : جـ ٢ ص ١٩٤ ، السِّيرة الحلبيَّـة : جـ ٣ ص ١٤١ ، البـدايـة والنهـايـة : جـ ٤ ص ٣٥٦ ، الكامـل في التـاريـخ : جـ ٢ ص ١٨٤ و ١٨٥ ، السِّيرة النبويَّة والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ٣٦٠ .

ثم قال رسول الله ﷺ : « ما حديث بلغني عنكم ؟ ما مقالة بلغتني عنكم ؟ ومَوْجِدَةٌ وجدتموها في أنفسكم ؟ » .

فقال فقهاء الأنصار[1] ووجهاؤهم : أما رؤساؤنا يا رسول الله ، فلم يقولوا شيئاً ، وأما ناس منا حديثةٌ أسنانهم ، فقالوا : يغفر الله لرسول الله ﷺ ، يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم ، فإن كان من أمر الله صبرنا ، وإن كان من أمر رسول الله ﷺ استعتبناه .

فقال رسول الله ﷺ : « أَوَجَدتم في نفوسكم يا معشر الأنصار في لُعَاعة[2] من الدنيا تألفتُ بها قوماً أسلموا ووكَلْتُكُم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام[3] » .

« أفلا ترضون يا معشر الأنصار ، أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاء والبعير ، وتذهبون برسول الله إلى رحالكم[4] ؟ » .

« إني لأُعطي رجالاً حديثي عهد بكفر أتألَّفهم ، إن قريشاً حديثو عهد بجاهلية ومصيبة ، وإني أردت أن أجبرهم وأتألَّفهم » .

---

(١) فقهاء هنا : فقهاء بالتسليم لرسول الله ﷺ حباً وقناعة بكل ما يفعل ، فقهاء : بالأدب معه ﷺ ، وفقهاء بإيمان صادق كامل يغمر قلوبهم وأرواحهم .

(٢) لُعاعة : شيء قليل من الدنيا ، يقول السهيلي في الروض الأُنف : جـ ٤ ص ١٦٩ : اللعاعة : بقلة ناعمة .

(٣) وفي رواية : « ووكلتكم إلى إسلامكم » .

(٤) وفي رواية : « وتذهبون برسول الله إلى دياركم » .

« إني أُعطي قوماً أخاف هلعهم وجزعهم ، وأَكِلُ قومـاً إلى مـا جعل الله في قلوبهم من الخير، منهم عمرو بن تغلب[1] » .

« أمـا ترضون أن يـذهب النـاس بـالأَموال ، وتـذهبون بـالنبيِّ إلى رحالكم ؟ فوالله لَمَا تنقلبون به خيرٌ مما ينقلبون به » .

« يـا معشر الأنصـار، ألا ترضـون أن يـذهب النـاس بـالـدنيـا ، وتذهبون برسول الله تحوزونه إلى بيوتكم ؟ » .

« يا معشر الأنصـار، أنتم الشِّعـار والنـاس الـدِّثـار[2] ، إنكم ستلقون بعدي أثرةً فاصبروا حتى تلقوني على الحوض » .

« يا معشر الأنصار، لو سلك الناسُ واديـاً وشِعْبـاً ، لسلكت وادي الأنصار وشِعْبها » .

« الأَنصـــــار كَرِشي وعيبتي[3] ، ولــولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار» .

---

(١) عمرو بن تغلب العَبْـديّ مِنْ عبـد القيس ، ذكر ابن الأثير ترجمتـه في أُسـد الغـابـة : جـ ٤ ص ٢٠١ .

(٢) الشِّعار : الثوب الذي يلي الجسد ، والدثار : الثوب الذي يكون فوق ذلك الثوب ، فهم أَلصق وأقرب إليه ﷺ من غيرهم .

(٣) كَرِشي وعَيْبَتي : أي خـاصَّتي ، ومـوضـعُ سِرِّي ، لسـان العرب : جـ ١ ص ٦٣٤ ، وكَرِشُ الرجل : عيـالـه من صغـار وَلَـدِه . لسـان العرب : جـ ٦ ص ٣٤٠ ، وعيبـة الرجل : موضـع سِرِّه .

« يا معشر الأنصار، أَلَم آتكم ضلالاً فهداكم الله بي ، وعالةً فأغناكم الله بي ، أَلَم آتكم متفرقين فـألفكم[1] الله بي ؟ أَلَم آتكم أعـداءً فـألَّف الله بين قلوبكم ؟ » ، كلما قال ﷺ شيئاً قال الأنصار : الله ورسوله أَمَنُّ[2] .

ثم قال رسول الله ﷺ : « أفلا تقولون ؟ » ، « لو شئتم لقلتم فَصَدَقْتُم وَصُدِّقْتُم ، أتيتنا مُكَذَّباً فصدَّقناك ، وجئتنـا خـائفـاً فـآمنـاك ، مخـذولاً فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلاً فآسيناك » .

قالوا : بل لله المنُّ علينا ولرسوله ، الله ورسوله أَمَنُّ .

تجاه هذا الموقف الإيماني الرفيع المستوى ، الملائكي ، الـذي خـاطب بـه رسول الله ﷺ عقول الأنصـار وقلـوبهم ، خـاطب من خـلالهـا فكر الأنصار وعواطفهم ، وتجاه مـا عرفـه وتوقَّعـه رسول الله ﷺ فيهم ، ومـا لمسه من تجاوب وتفهُّم لما فعله مع المؤلَّفة قلوبهم ، نَـالَ الأنصـار وسـامـاً خـالـداً على مرِّ الزمن ، بـاق بـأحرف من نور وعظمـة إلى أن يرث الله

---

(١) وفي رواية : « ألم آتكم متفرّقين فجمعكم الله بي » .

(٢) أقـوالـه ﷺ مجمـوعـة من المصـادر التـاليـة : الاكتفـاء : جـ ١ ص ١٥٠ / أ ، الطبري : جـ ٣ ص ٩٤ ، ابن خلـدون : جـ ٢ ص ٤٨ ، عيـون الأثر : جـ ٢ ص ١٩٤ ، البـدايـة والنهايـة : جـ ٤ ص ٣٥٧ ، السِّيرة النبويّـة لابن كثير : جـ ٣ ص ٦٧٥ و ٦٧٦ و ٦٧٧ و ٦٧٨ و ٦٧٩ ، ابن سعـد : جـ ٢ ص ١٥٤ ، ابن هشـام : جـ ٤ ص ١٠٦ ، الكامـل في التـاريـخ : جـ ٢ ص ١٨٤ و ١٨٥ ، السِّيرة الحلبيَّة : جـ ٣ ص ١٤١ ، السِّيرة النبويّـة والآثـار المحمديـة : جـ ٢ ص ٣٦٠ ، الروض الأُنف : جـ ٤ ص ١٦٩ .

الأرض ومن عليها . قال ﷺ : « اللهم أنتم أحب الناس إلي ، الأنصار حُبُّهم إيمان ، وبغضهم نفاق » .

« اللهم اغفر للأنصار ، ولأبناء الأنصار ، ولأبناء أبناء الأنصار ، ولنساء الأنصار ، ولنساء أبناء الأنصار ، ولنساء أبناء أبناء الأنصار » .

« اللهم اغفر للأنصار ، ولذراري الأنصار ، ولذراري ذراريهم ، ولمواليهم ولجيرانهم » .

« لا يبغض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر » .

« لا تؤذوا الأنصار ، فمن آذاهم فقد آذاني ، ومن نصرهم فقد نصرني ، ومن أحبهم فقد أحبني ، ومن أبغضهم فقد أبغضني ، ومن بغى عليهم فقد بغى علي ، ومن قضى لهم حاجة كنت في حاجته يوم القيامة أسرع إلى الله » .

فبكى القوم حتى أَخْضَلُوا لحاهم ، وقالوا : رضينا بالله رَبّاً ، ورسوله قَسْماً ، رضينا برسول الله قَسْماً وحَظّاً .

☆ ☆ ☆

قال حسان بن ثابت رضي الله عنه ، فيما كان من أمر الأنصار ، وتأخرهم عن الغنيمة :

زاد الهمومَ فماءُ العَيْنِ مُنْحَدِرٌ ... سحّاً إذا حَفلْته عَبْرةٌ دَرِرُ[1]

وَجْداً بشَمَّاء إذْ شَمَّاءُ بَهْكَنَةٌ[2] ... هَيْفاءُ لاذَنَنٌ فيهَا ولا خَوَرُ[3]

دَعْ عنك شَمَّاءَ إذ كانت مودَّتها ... نَزْراً وشرُّ وصالِ الواصلِ النَّزَرُ[4]

وأْتِ الرسولَ وقل ياخيرَ مُؤْتَمَن ... للمؤمنين إذا ما عُدِّد البَشَرُ

عَلاَمَ تُدْعى سُلَيْمٌ وَهي نازحةٌ ... قُدَّامَ قوم هُمُ آوَوا وَهُم نَصَروا

سَمَّاهُمُ اللهُ أنصاراً بنصرهِمُ ... دينَ الهدى وعَوانُ الحربِ تَسْتَعِرُ

وَسَارَعوا في سبيلِ اللهِ واعتَرَضوا ... لِلنَّائباتِ وَمَا خَانُوا وَمَا ضَجروا

وَالنَّاسُ إلْبٌ علينا فيكَ ليس لَنَا ... إلاَّ السيوفَ وَأَطرافَ القنا وَزَرُ[5]

نُجَالِدُ الناسَ لانُبْقي على أحَدٍ ... ولا نضيّع ماتُوحي بِهِ السُّوَرُ

ولا تَهِرُّ جُنَاةُ الحربِ نادِيَنَا ... ونحن حين تلظّى نارُها سُعُرُ[6]

كما رَدَدْنا ببدرٍ دونَ ماطَلَبُوا ... أهلَ النِّفاقِ وفينا يُنْزل الظَّفَرُ

ونحنُ جُندكَ يوم النَّعْفِ[7] من أُحُدٍ ... إذ حزَّبتْ بَطراً أحزابَها مُضَرُ

---

(١) ابن هشام : زادت هموم ، وفي البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٣٦١ : (ذر الهمومَ) ، وسحّ : سال . لسان العرب : جـ ٢ ص ٤٧٦ » .

(٢) وفي رواية : إذ شنباء ، والشنباء : بيضاء الأسنان ، والبهكنة : الشَّابة الغضة .

(٣) والذنن : القذر ، والخور : الضعف .

(٤) النَّزَرُ : القليل المحتقر . لسان العرب : جـ ٥ ص ٢٠٣ .

(٥) إلْبٌ : الإلب ـ بالفتح والكسر ـ القوم يجتمعون على عداوة إنسان . لسان العرب : جـ ١ ص ٢١٥ ، والوَزَرُ : الملجأ . لسان العرب : جـ ٥ ص ٢٨٢ .

(٦) هَرَّ الشيءَ يَهُرُّه ويَهِرُّه هَرّاً وهَريراً : كَرِهه . لسان العرب : جـ ٥ ص ٢٦٠ .

(٧) النَّعْفُ من الأرض : المكان المرتفع في اعتراض ، وقيل : هو ماانحدر عن السّفح وغَلُظ وكان فيه صعود وهبوط . لسان العرب : جـ ٩ ص ٣٣٧ .

فما وَنِينَا وما خِمْنا[1] ومـا خَبَروا　　مِنّا عِثاراً وَكُلُّ النـاس قـد عَثَرُوا[2]

☆ ☆ ☆

«إذا لم أَعْدِل فمن يعدل ؟»:

وجاء رجل من تميم يُـدْعى ذو الخُوَيْصِرَة ، وقـال : يـا محمـد ، (مما يدل على نفاقه ، لأن الصحابة الكرام لا يخاطبون رسول الله ﷺ بآسمه الصريح ، تأدُّباً واحتراماً) ، قد رأيتُ ما صنعتَ في هذا اليوم .

فقال ﷺ : « أجل ، فكيف رأيت ؟ » .

قال : لم أَرَكَ عَدَلْت ، يا محمد اعدل .

فغضب رسـول الله ﷺ ، وقـال : « ويحـك ، إذا لم يكن العـدل عندي ، فعند من يكون ؟ » ، « ويلك ومن يعدل إذا لم أكن أعدل ؟ لقد خبت وخسرت إذا لم أكن أعدل » ، « رحم الله موسى قد أُوذي بـأكثر من هذا فصبر»[3] .

---

(1) قَلْبٌ مَخْمُومٌ : أي نقيٌّ من الغش والحسد . لسان العرب : جـ ١٢ ص ١٩٠ .

(2) الاكتفـاء : جـ ١ ص ١٤٩ / ب ، البـدايـة والنهـايـة : جـ ٤ ص ٣٦١ ، السِّيرة النبويَّـة لابن كثير : جـ ٣ ص ٦٨٤ و ٦٨٥ ، ابن هشام : جـ ٤ ص ١٠٥ .

(3) مع مـاسبق من مصـادر في الحـاشيـة السـابقـة راجع : الكامل في التـاريخ : جـ ٢ ص ١٨٤ ، الطبري : جـ ٣ ص ٩٢ ، الروض الأُنف : جـ ٤ ص ١٦٨ ، السِّيرة الحلبيَّة : جـ ٣ ص ١٣٩ .

فقال عمر: ألا نقتله ؟ دعني يا رسول الله فأقتل هذا المنافق !

فقال ﷺ: « معاذ الله أن يتحدث الناسُ أني أقتل أصحابي، إن هذا وأصحابه يقرؤون القرآن لا يتجاوز حناجرهم، يمرقون منه كما يَمْرق السَّهْمُ من الرَّمِيَّة[1]، يُنظر في النَّصْل[2] فلا يوجد شيء، ثم في القِدح[3] فلا يوجد شيء، ثم في الفوق[4] فلا يوجد شيء، سبق الفَرْث[5] والدم، دعه فإنّ له أصحاباً يَحْقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يَمْرُقون من الإسلام كما يمرق السَّهمُ من الرميَّة، يُنظر إلى نَصْله فلا يوجد فيه شيء، ثم إلى رِصافِه[6] فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى نَضِيِّه[7] ـ وهو قِدْحه ـ فلا يوجد فيه شيء، ثم يُنْظَر إلى قُذَذه[8] فلا يوجد فيه شيء، وقد سبق الفرثَ والدم[9]، آيتهم رجل أسود إحدى عَضُديه مثل ثدي المرأة، أو مثل البَضْعة تَدَرْدَر[10]، ويخرجون على حين فُرْقة من الناس ».

---

(١) الرَّمِيَّةُ : الشيء الذي يُرْمى .

(٢) النَّصل : حديد السهم .

(٣) القدح : السَّهم .

(٤) الفُوق : طرف السهم الذي يباشر الوتر .

(٥) الفَرْثُ : ما يوجد في الكرش .

(٦) الرصاف : جمع رصفة ، وهي عقبة تلوى على مدخل النصل في السهم .

(٧) النضي : القدح ـ السهم ـ الذي يُخرج من كنانته ليُرْسَل .

(٨) القذذ : ريش السهم .

(٩) المعنى : أنه مرق عاجلاً فلم يعلق به دم .

(١٠) تدردر : تتحرك وتذهب وتجيء .

وفي روايــة السُّهَيْلي في الروض الأُنف : « يخرج من ضئضئــه قـوم تحقر من صلاتكم إلى صلاتهم ، وصيامكم إلى صيـامهم ، يمرقون من الـدين كما يمرق السهم من الرمية .. » [1] .

وقال خالد بن الوليد : ألا أضرب عنقه ؟
فقال ﷺ : « لا لعلَّه أن يكون يصلي » .
خالد : وكم مصل يقول لسانه ماليس في قلبه !.
فقــال ﷺ : « لم أُومر أن أَلقب عن قلـوب النــاس ، ولا أشـق بطونهم » [2] .

وصــدق رسـول الله ﷺ ، لقــد خرج من ذي الخـو يصرة نـافِعُ المعروف بـذي الثـديـة [3] ، وهو أول من بو يع من الخـوارج بـالإمـامـة ، قاتلهم علي رضي الله عنه لأنهم نقموا عليه التحكيم الـذي وقع بينـه وبين معاوية في صفين ، وقالوا : لا حكم إلا لله .

قال أبو سعيد : فأشهد أني سمعت هذا من رسول الله ﷺ ، وأشهـد أن علي بن أبي طالب قاتلهم وأنا معـه ، وأَمَر بـذلـك الرجل فـالتُمِسَ ، فأُتي بـه حتى نظرت إليـه على نَعْت رسول الله ﷺ الـذي نعت ، فكبَّر

---

(١) الروض الأُنف : جـ ٤ ص ١٦٨ .
(٢) السِّيرة الحلبيَّــة : جـ ٣ ص ١٣٩ و ١٤٠ ، والمراد : لم أُومر أن أصف (أُعلن عن) قلـوب الناس .
(٣) في الروض الأُنف : جـ ٤ ص ١٦٨ اسمه رافع .

علي رضي الله عنه ، ثم قـال : صـدق رسول الله ﷺ ، سمعتـه يقول : إن فيهم رجلاً له عضد ، وليس له ذراع ، على رأس عضده مثل حلمة الثدي عليه شعرات بيض[1] .

لَيْسَ في الأرضِ جَهْلٌ لم يَسَعْهُ حِلْمُ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَلاَ ذَنْبٌ لم يَسَعْهُ عَفْوُهُ :

لقـــد كان رســول الله ﷺ ـ على الرغم من عنف وقســوة وحرج وصعوبة هذه المواقف ـ عظيماً .

عظيماً في سعة حِلْمِهِ .

وعظيماً في سعة عفوه .

مع عظمته في هَدْيِهِ ونورانيته وبلاغه وحجَّته ..

وكل هـذا مـا أفـاد نفوسـاً أمثـال ذي الخـو يصرة ، لأنهـا مـا أرادت هدايةً ، ولا نوراً ، ولا بلاغاً ، ولا حُجَّة ..

لم تتأثر بعض النفوس ، لا نقصاً في هَدْي ، ولا عجمة في بلاغ ، ولا غموضاً في تبليغ ، ولا وهناً في حُجَّـة ، ولكنهـا قلوب مقفلـة ، فما الـذي يفعله محراث الفلاح الماهر في أرض صخرية ؟ وما الـذي تنتجـه البـذار الطيبة في تُرْبَةٍ ملحيَّة مُرَّة ؟

---

(١) السِّيرة الحلبيَّة : جـ ٣ ص ١٤١ .

ومعظم أصحاب هذه النفوس لا يصلحها زمن ، ولا يردعها نصح .

ويتدارك الفضل الإلهي بعضها ، فيبدّل من حال إلى حال ، ولكن بعد صبر وزمن وصحبة ، فالثمر لكي ينضج يحتاج إلى زمن وحرارة الصيف ، ولو أردنا الثمر قبل أوانه فأوجدنا حرارة هي نار موقدة حول الجذوع ، وتحت البراعم والفروع والأغصان ، فقدنا الشجر مع الثمر .

غاب نور النبوَّة عن هؤلاء ، مع أن النور موجود ، ولكنه عمى البصر والبصيرة ، فالشمس لم تغب ، بل هم الذين غابوا عنها ، إن نورها دائم ، وعطاءها مستمر ، نسبوا مغيبها إليها ، والحقيقة أنهم هم الذين غابوا عنها .

ومثل موقف ذي الخويصرة وأمثاله لا يَظْهر من الصحابة الأُول ، حيث الإيمان الراسخ ، والتربية الكاملة ، والنور الذي خرق إلى القلوب فحييت بالله عز وجل .

مواقف تظهر من الطُّلَقاء الذين أسلموا حديثاً ولم تكتمل تربيتهم الإيمانية ، ومن الأعراب الجفاة ، وصدق المثل القائل : «آخِرُها أَقَلُّها شُرْباً» ، فكن في أوَّل من يرد ! !



ما بعد حنين والطائف ﷺ

١ - إسلام مالك بن عوف النَّصْري .
٢ - الشَّيماء السعديّة أخت رسول الله ﷺ .
٣ - إسلام النُّضَير بن الحارث بن كَلَدة .
٤ - عمرة رسول الله ﷺ من الجِعْرانة .

١ - إسلام مالك بن عوف النَّصْري :

« اَنْقَطَعَ نِظَامُ[1] عَقْدِ ثَقيفٍ وهوازن فَتَبَعْثَرَتْ حَبَّاتُهُ » :

وسأل رسول الله ﷺ وفد ثقيف : « ما فعل مالك بن عوف ؟ » .

فقالوا : هو بالطائف مع ثقيف .

فقال ﷺ : « أَخبروا مالكاً أَنَّه إن أَتاني مُسْلِماً رَدَدْتُ إليه أَهله وماله ، وأعطيته مئةً من الإبل » ، وهذه كما يقال : « ضربة مُعَلِّم » ، سياسة رائعة رشيدة ، سيحقِّق ﷺ من خلالها فتح الطائف دون سفك

(١) النِّظام : الخيط الذي ينظم به اللؤلؤ وغيره . لسان العرب : جـ ١٢ ص ٥٧٨ .

دماء ، وليرفد قوة المسلمين بقوة جديدة تضاف إلى قوتهم ، من غير حرب ، وبلا سفك دماء قد تثير النفوس .

فلما بلغ ذلك مالكاً ، انسلَّ من الطائف ، وخاف ثقيفاً على نفسه أن يعلموا أن رسول الله ﷺ قال بحقه ما قال ، فأمر براحلته فَهُيِّئَتْ له ، وأمر بفَرَس له فأُتِيَ به الطائف ، فخرج ليلاً ، فجلس على فرسه ، وسارع حتى أتى راحلته حيث أمر بها أن تحبس له ، فركبها فلحق برسول الله ﷺ ، فأدركه بالجِعْرانة - وفي رأي بمكّة - فأسلم ، وحسن إسلامه ، فردَّ عليه ﷺ أهله وماله ، ولما أعطاه مئة من الإبل[1] قال مالك بن عوف :

مــا إنْ رأيتُ ولا سَمِعتُ بمثلِهِ	في النــاس كُلِّهم بِمثلِ مُحَمَّـدِ
أَوْفَى وأَعْطى للجزيل إذا ٱجْتُدي	ومتى تَشَــأْ يُخْبِركَ عمّـا في غَـدِ
وإذا الكتيبَــةُ عرَّدَتْ أنيابُهــا	بـالسَّمْهَريِّ وَضَرْبِ كُـلِّ مُهَنَّـدِ[2]
فكأنَّــهُ لَيْثٌ على أشْبــالِــهِ	وسْطَ الهَبَـاءَةِ خـادِرٌ في مَرْصَـدِ[3]

---

(١) فهو بذلك من « أصحاب المِئين » .

(٢) عرّدت : اشتدت وضريت ، والسَّمْهَرِيُّ : الرُّمح الصَّليبُ العود . لسان العرب : جـ ٤ ص ٣٨١ .

(٣) الهباءة : غبار الحرب ، والخادر : المقيم في عرينه . وللأبيات والخبر راجع : الاكتفاء : جـ ١ ص ١٤٨ / ب ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٣٦١ ، السِّيرة النبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٦٨٣ ، الطبري : جـ ٣ ص ٨٨ ، ابن هشام : جـ ٤ ص ١٠٠ ، السِّيرة الحلبيَّة : جـ ٣ ص ١٤٦ .

حِصَارُ الطَّائِفِ حِصَاراً اقْتِصَادِياً :

واستعمل رسول الله ﷺ مـالكاً على مَنْ أسلم من قومـه ، وعلى مَنْ أَسلم من القبائل حول الطائف ، فكان مالك يقـاتل بهم ثقيفـاً ، لا يخرج لهم سَرْحٌ إلاّ أغار عليـه ، حتى ضيَّق عليهم ، ومن ضيَّق عليهم ؟ قـائـدهم بالأمس ، وقال أبو مِحْجَن بن حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي :

هَـابَتِ الأَعْـدَاءُ جَـانِبَنَـا ... ثُمَّ تَغْـزُونـا بَنـو سَلَمـهْ
وَأَتَـانَـا مـالـكٌ بِهم ... نـاقِضـاً لِلعَهْـدِ والحُرُمَـهْ
وَأَتَـوْنـا في مَنَـازِلنـا ... ولقـد كُنَّـا أُولِي نقمَـهْ[1]

☆ ☆ ☆

٢ ـ الشَّيْمَاءُ السَّعْدِيَّة
«أُختُ رسول الله ﷺ من الرَّضَاعة» :

قال رسول الله ﷺ يوم هوازن : «إن قـدرتم على نجـاد ـ رجل من بني سعد بن بكر ـ فلا يُفْلتنَّكم» ، وكان قد أحدثَ حدثاً . فلمـا ظفر بـه المسلمون ، ساقوه وأَهلـه ، وسـاقوا معـه أُختـه الشَّيمـاء بنت الحـارث بن

---

(١) البيت الأخير غير موجود في الاكتفاء : جـ ١ ص ١٤٩ / أ ، والشَّرح : المال السائم ، المال يُسَامُ في المرعى من الأنعام . لسان العرب : جـ ٢ ص ٤٧٨ .

عبد الله بن عبد العُزّى[1] ، أُخت رسول الله ﷺ من الرضاعة ، وعنفوا عليهـا في السِّيـاق معهم ، فقـالت للمسلمين : تعلمـون والله أني لأُختُ صـاحبكم من الرضـاعـة ، فلم يُصَـدِّقوهـا ، حتى أتوا بهـا رسولَ الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ، إني أُختك ، أنا شيماء بنت الحـارث ، قـال ﷺ : « إن تكوني صادقة فإن بِـكِ مني أثراً لا يَبْلى » ، فكشفت عن عضـدهـا ، فقالت : نعم يا رسول الله ، وأنت صغير فعَضَضْتني هذه العضـة ، فبسـط لها رسول الله ﷺ رداءه فأجلسها عليه ، ودمعت عيناه ﷺ ، وسـألهـا عن أمِّـه وأبيـه فـأخبرتـه بموتها[2] ، وقـال لهـا : « سَلِي تُعطَي ، واشفعي تُشَفَّعي » ، وفي « السِّيرة النبـو يـة والآثـار المحمـديَّـة » : (فـاسـتـوهبتـه السَّبي) ، ثم خيَّرها ﷺ وقال : « إن أحببتِ فعندي محبَّبة مكرَّمة ، وإن أحببتِ أن أُمتِّـعـك وترجعي إلى قـومـك فعلتُ » ، قـالت : بـل تمتِّعني وتردني إلى قـومي ، فمتعهـا رسـول الله ﷺ وردَّهـا إلى قـومهـا بعـد أن أسلمت ، وأعطاها وأجزل لهـا العطـاء ، وأَعطـاهـا غلامـاً لـه يقـال لـه

---

(١) في أعلام النِّسَاء : جـ ٢ ص ٣١٦ : اسمها حـذافـة ، وغلب عليهـا الشيـاء ، فكانت لا تعرف في قومها إلا به ، وفي سيرة ابن هشام : إنها الشَّمَّاء ، وهي ابنة حليمة السعديـة مرضعـة رسول الله ﷺ ، كانت تحضنه ﷺ وهو طفل وترقصه وتقول :

يَـــا رَبَّنَـــا أَبـقِ أخي مُحَمَّـــدا حَتَّى أراهُ يَـــــافِعَـــــاً وأَمْرَدَا
ثم أراهُ سَيِّـــــــــداً مُسَـــــــوَّدا وَاكبتْ أَعَـــادِهِ مَعَـــاً والحُسَّـــدا
وأعطه عِزّاً يَدُومُ أَبَدَا

(٢) السِّيرة الحلبيَّـة : جـ ٣ ص ١٤٣ ، وفي روايـة : قـالت : إني أُختـك ، قـال : « ومـا عـلامـة ذلك ؟ » ، قالت : عضَّة عضضتنيها في ظهري وأنا متورِّكتك .

مكحول وجارية، فزوجت أحدهما الآخر، فلم يزل فيهم من نسلهما بقية[1].

☆ ☆ ☆

٣ـ إسْلاَمُ النُّضَير بن ٱلحَارِث بن كَلَدَة :
«لكأنَّ قلبي حَجَرٌ ثباتاً في الدين، وتَبْصرة بالحقّ» :

خرج النُّضَير مع قومه من قريش إلى حنين، وهم على دينهم بعد، قال النُّضَير: ونحن نريد إن كانت دائرةٌ على محمد أن نُغير عليه، فلم يُمْكنَّا ذلك، فلما صار ﷺ بالجِعْرانة، فوالله إني لَعَلَى ما أنا عليه، إنْ شعرت إلاَّ برسول الله ﷺ فقال: «أَنُضَير؟»، قلت: لبيك، قال: «هل لك إلى خير مما أردتَ يوم حنين، مما حالَ اللهُ بينك وبينه؟»، فأقبلتُ إليه سريعاً، فقال ﷺ: «قد آنَ لك أن تُبصر ما كنت فيه تُوضِع[2]»، فقلت: قد أدري أن لو كان مع الله غيره، لقد أغنى شيئاً، وإني أشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، فقال ﷺ: «اللّهم زِدْه ثباتاً».

---

(١) الاكتفاء: جـ ١ ص ١٤٦ / أ، الطبري: جـ ٣ ص ٨٠ و ٨١، السِّيرة الحلبيَّة: جـ ٣ ص ١٤٣، السِّيرة النبويَّة لابن كثير: جـ ٣ ص ٦٨٩، عيون الأثر، جـ ٢ ص ١٩٥، الكامل في التاريخ: جـ ٢ ص ١٨٠، ابن هشام: جـ ٤ ص ٧٥، البداية والنهاية: جـ ٤ ص ٣٦٣، ابن خلدون: جـ ٢ ص ٤٨.

(٢) وُضِعَ في تجارته ضَعةً وضِعةً ووضيعةً، فهو مَوْضوعٌ فيها، وأُوضِعَ ووَضِعَ وَضَعاً: غُبِنَ وخَسِرَ فيها. لسان العرب: جـ ٨ ص ٣٩٧.

قال النُّضَير: فوالذي بعثه بالحق لكأنَّ قلبي حجرٌ ثباتاً في الدين، وتَبْصرة بالحق، فقال رسول الله ﷺ: «الحمد لله الذي هداه».

وكان النُّضَير يقول: الحمد لله الذي منَّ علينا بالإسلام، ومنَّ علينا بمحمد ﷺ، ولم نمت على ما مات عليه الآباء، وقُتِلَ عليه الإخوة وبنو العم[1].

جاء في أُسد الغابة[2] بحق النُّضَير: من مسلمة الفتح، كان من أجمل الناس، وكان يكثر الشكر لله تعالى على ما مَنَّ عليه من الإسلام، ولم يمت على ما مات عليه أخوه النَّضْرُ وآباؤه، وأمر له رسول الله ﷺ يوم حنين بمئة من الإبل، فأتاه رجل من الدِّيل يبشِّره بذلك، وقال: أَحْذِني[3] منها، فقال له النُّضَير: ما أُريد أخذها، لأني أحسب أن رسول الله ﷺ لم يعطني ذلك إلا تألُّفاً على الإسلام، وما أُريد أن أرتشي على الإسلام، ثم قال: والله ما طلبتها، ولا سألتها، وهي عطيَّة من رسول الله ﷺ، فأخذها وأعطى الديليَّ منها عشرة.

ثم خرج إلى رسول الله ﷺ فجلس معه في مجلسه، وسأله عن فروض الصلاة ومواقيتها، وقال: فوالله لقد كان أحبَّ إليَّ من نفسي، وقال له: يا رسول الله، أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال ﷺ: «الجهاد

---

(1) السِّيرة النبويَّة لابن كثير: جـ ٣ ص ٦٩١، البداية والنهاية: جـ ٤ ص ٣٦٤.

(2) أُسد الغابة: جـ ٥ ص ٣٢٣.

(3) أحْذني: أعطني.

والنفقة في سبيل الله » . شهد النُّضَير رضي الله عنـه اليرموك ، واستشهـد بها .

☆ ☆ ☆

٤ ـ عُمْرَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ ٱلجِعْرانة :

كانت عمرته ﷺ في ذي القعدة ، ثم عاد ﷺ إلى المـدينـة المنورة . واستخلف على مكة عَتَّاب بن أسيد ـ وكان غلبه الورع والزهد ـ فـأقـام الحج بالمسلمين في هذه السنة ـ ٩ للهجرة ـ ، وهو أول أمير مسلم أَقـام حج الإسلام .

وأبقى ﷺ معاذَ بن جبل في مكة يُفَقِّه الناسَ في الدين ، ويعلمهم القرآن الكريم[١] .



(١) الاكتفـاء : جـ ١ ص ١٥٠ / أ ، ابن خلـدون : جـ ٢ ص ٤٨ ، الطبري : جـ ٣ ص ٩٤ ، البـدايـة والنهـايـة : جـ ٤ ص ٣٦٥ ، ابن هشـام : جـ ٤ ص ١٠٧ ، الكامـل في التـاريـخ : جـ ٢ ص ١٨٥ ، السِّيرة النبويَّة والآثار المحمديَّة : جـ ٣ ص ٨ .

خاتمة

نتائج وملاحظات

☆ « اللّهم اهدِهم واكفنا مؤُنتهم ،
اللّهم اهدِ ثقيفاً وَأْتِ بهم » .
رسول الله ﷺ

إسلام ثقيف :

وعندما انصرف رسول الله ﷺ عن أهل الطائف ، عاد عُرْوَةُ بن مسعود بن مُعَتَّب الثقفي من جُرَش باليمن ، وعلم بما جرى ، فاتبع أثَرَ رسولِ الله ﷺ حتى أدركه قبل أن يصل المدينة المنوَّرة ، فأسلم ، وسأل رسولَ الله ﷺ أن يرجع إلى قومه بالإسلام ، فقال له رسول الله ﷺ : « إنَّهم قاتلوك » ، فقال عروة : يا رسول الله ، أنا أَحبُّ إليهم من أبكارهم[1] ، (وكان فيهم كذلك ، محبَّباً مطاعاً) .

فعاد عروة إلى الطائف ، ودعى قومه إلى الإسلام ، ورجا ألاَّ

(١) ابن هشام ، وأُسد الغابة : « أنا أحب إليهم من أبصارهم » .

يخالفوه لمنزلته فيهم ، فلما أشرف لهم على عُلِّيَّة لـه ، وأظهر لهم إسلامـه ، رَمَوْهُ بالنبل من كل وجه ، فأصابه سهمٌ فقتله ، وقيل إن قاتلـه أوس بن عوف ، وقيل وهب بن جابر ، فقيل لعروة : ماترى في دمك[1] ؟ قـال : كرامـة أكرمني الله بهـا ، وشهـادة سـاقهـا الله إليَّ ، فليس فِيَّ إلاَّ مـا في الشهـداء الـذين قُتِلوا في سبيل الله مع رسـول الله ﷺ قبـل أن يرتحـل عنكم ، فادفنوني معهم ، فدفنوه معهم .

قال ﷺ فيه : « إن مَثَلَه في قومه كمثل صاحب يس في قومـه[2] » . نصح قومه حيّاً وميتاً .

ثم أقـامت ثقيف بعـد قتـل عُروة أشهراً ، ثم إنهم ائتمروا بينهم ألاَّ طـاقـة لهم بحرب مَنْ حولهم من العرب وقـد بـايعوا وأسلموا ، وبعـد أن

---

(١) وفي رواية : « ماترى في دِيَّتِك ؟ » .

(٢) قـال قتـادة في قـولـه تعـالى : ﴿ لَـوْلا نُـزِّلَ هَـذَا القُرْآنُ على رَجُـلٍ مِنَ القَرْيَتَيْنِ عَظِيم ﴾ [الزخرف ٤٣ / ٣١] ، قالها الوليد بن المغيرة المخزومي أبو خالد ، قال : لو كان مايقول محمد حقّاً لأُنزل القرآن عَلَيَّ أو على عروة بن مسعود الثقفي ، والقريتان : مكة والطـائف (تفسير ابن كثير : جـ ٤ ص ١٢٦ و ١٢٧) ، وكان عروة يشبَّـه بـالمسيح عليـه السـلام في صـورتـه ، ولعروة ولد يقال له أبو المليح ، أسلم بعـد قتل أبيـه مع قـارب بن الأسود ، وعروة هو الـذي عاد إلى قريش وقال لهم قبيل توقيع صلح الحديبية : قد عرض عليكم خُطَّة رشد فـاقبلوهـا . ولأخبار عروة راجع : الاكتفاء : جـ ١ ص ١٥٦ / أ ، ابن خلدون : جـ ٢ ص ٥٠ ، البـدايـة والنهـايـة : جـ ٥ ص ٢٩ ، الطبري : جـ ٣ ص ٩٦ ، عيـون الأثر : جـ ٢ ص ٢٢٨ ، أُسـد الغابة : جـ ٤ ص ٣٢ ، ابن هشام : جـ ٤ ص ١٣٥ .

ضيّق مالك بن عوف النَّصْري على ثقيف، واستباح سرحهم، وقطع سابلتهم، وبلغهم رجوع رسول الله ﷺ من تبوك[1].

ومشى عمرو بن أُميَّة ـ وكان من أدهى العرب ـ إلى عبد ياليل بن عمرو، وتداول معه أمرَ رسول الله ﷺ، وأَمْرَ من حولهم من القبائل، وقال له: إنه قد كان من أمر هذا الرجل ما قد رأيتَ، وقد أسلمت العربُ كُلُّها، وليست لكم بحربهم طاقة، فانظروا في أمركم. فعند ذلك ائتمرت ثقيف بينها، وقال بعضهم لبعض: ألا ترون أنه لا يأمن لكم شِرب، ولا يخرج منكم أحدٌ إلاّ اقتُطِعَ به!

لقد أثبت الحصارُ الاقتصادي نجاعته، وها هي ثقيف بعد تداول تتَّخذ قرارها، أن ترسل إلى رسول الله ﷺ رجلاً مفاوضاً، يجد لهم مخرجاً مما هم فيه. فكلَّموا عبد ياليل ـ وكان في سنٍّ عروة بن مسعود الثقفي ـ وعرضوا ذلك عليه، فأبى أن يفعل، وخشي أن يُصنع به إذا رجع كما صُنِع بعروة، فقال: لست فاعلاً حتى تبعثوا معي رجالاً، فأجمعوا على أن يبعثوا معه رجلين من الأحلاف، وثلاثة من بني مالك، فيكونوا ستة:

١ ـ عبد ياليل بن عمرو، سيد الوفد ورئيسه: «نابُ القوم وصاحب أمرهم».

---

(١) ابن خلدون: جـ٢ ص ٥١، الطبري: جـ ٣ ص ٩٧.

٢ ـ عثمان بن أبي العاص بن بشر بن عبد دُهمان .
٣ ـ أوس بن عوف .
٤ ـ نُمَير بن خَرَشة بن ربيعة .
٥ ـ الحكم بن عمرو بن وهب بن معتب .
٦ ـ شُرْحَبيل بن غيلان بن سلمة بن معتب[١] .

وخرج بهم عبد ياليل معتبراً مما فعل قومه بعروة بن مسعود ، وليشغل كلٌ رجل منهم إذا رجعوا إلى الطائف رهطَهُ ، فلما دنوا من المدينة المنورة (في رمضان من السَّنَة التاسعة[٢]) ، ونزلوا « قَنَاة »[٣] ، فلقوا بها المغيرة بن شعبة يرعى في نوبته ركاب أصحاب رسول الله ﷺ ، وكانت رِعْيَتُها نُوَباً على أصحابه ، فلما رآهم المغيرة ترك الركاب وضَبر[٤] يشتدُّ لِيُبَشِّرَ رسولَ الله ﷺ بقدومهم عليه ، فلقيه أبو بكر الصديق رضي الله عنه قبل أن يدخل على رسول الله ﷺ ، فأخبره عن رَكْب ثقيف أَنَّهم قدموا يريدون البيعة والإسلام ، بأَن يشرط لهم شروطاً ، ويكتتبوا من رسول الله كتاباً في قومهم وبلادهم وأَموالهم .

---

(١) الاكتفاء : جـ ١ ص ١٥٦ / أ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ٢٢٩ ، ابن هشام : جـ ٤ ص ١٣٦ .
(٢) ابن خلدون : جـ ٢ ص ٥١ ، ابن هشام : جـ ٤ ص ١٣٥ .
(٣) قَنَاةُ : واد بالمدينة المنوَّرة ، وهي أحد أوديتها الثلاثة عليه حَرْثٌ ومال . معجم البلدان : جـ ٤ ص ٤٠١ .
(٤) ضَبَرَ الفَرَسُ يَضْبُرُ ضَبْراً وضَبَراناً إذا عدا ، ووثب . لسان العرب : جـ ٤ ص ٤٧٩ .

فقال أبو بكر للمغيرة : أقسمت عليك بـالله لا تسبقني إلى رسول الله ﷺ حتى أكون أنا الذي أُحـدثـه ، فقبل المغيرة ، فـدخل أبو بكر على رسول الله ﷺ ، فـــأخبره عن ركب ثقيف وقـــدومهم . ثم خرج المغيرة إلى أصحـابـه فروَّح الظَّهر[1] معهم ، وعلَّمهم كيف يُحَيُّون رسـولَ الله ﷺ ، فلم يفعلوا إلا بتحية الجاهلية : « انعم مساءً » .

ولما قَدِموا على رسول الله ﷺ ضرب عليهم قُبَّة في ناحية مسجده ، وكان خالد بن سعيد بن العاص[2] هو الـذي يمشي بينهم وبين رسول الله ﷺ حتى اكتتبوا كتابهم ، وكان خـالـد هو الـذي كتب كتـابهم بيـده ، وكانوا لا يطعَمون طعاماً يأتيهم من عند رسول الله ﷺ حتى يأكل منه خالد بن سعيد ، حتى أسلموا ، وبايعوا وفرغوا من كتابهم[3] .

وقـد كان فيما سـألـوا رسـولَ الله ﷺ أن يَـدَعَ الطــاغيـــة (وهي اللاَّت) ، لا يهدمها ثلاث سنين ، فـأبى رسولُ الله ﷺ ذلـك عليهم ، فمـا

---

(١) روَّح : من الراحة ضد التعب . لسان العرب : جـ ٢ ص ٤٦١ ، والظهر : الركائب التي تحمل الأثقال في السفر ، فحملها إياها على ظُهُورها . لسان العرب : جـ ٤ ص ٥٢٢ .

(٢) خالد بن سعيـد بن العـاص بن أُميَّة بن عبـد شمس بن منـاف بن قصي القرشي الأُموي ، أسلم قديماً ، وهاجر إلى الحبشة في الهجرة الثانية ومعه امرأته أُمية بنت خالد الخزاعية ، شهد عمرة القضاء ، وفتح مكة ، وحنينـاً والطـائف وتبوك ، استشهـد بِمَرْجِ الصُّفَّر في أواخر خلافـة أبي بكر وصدر خلافة عمر رضي الله عنهما . أُسد الغابة : جـ ٢ ص ٩٧ .

(٣) البداية والنهاية : جـ ٥ ص ٣١ ، الطبري : جـ ٣ ص ٩٩ ، ابن خلدون : جـ ٢ ص ٥١ ، ابن هشام : جـ ٤ ص ٥١ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ٢٣٠ ، ابن هشام : جـ ٤ ص ١٣٧ .

برحوا يسألونه سنة سنة، فأبى عليهم حتى سألوه شهراً واحداً بعد مقدمهم إلى الطائف، فأبى ﷺ أن يَدَعها شيئاً يُسَمَّى. لقد أرادوا بذلك فيما يُظْهِرُون أن يَسْلَموا بتركها من سفهائهم ونسائهم وذراريهم، ويكرهون أن يروِّعوا قومهم بهدمها حتى يدخلهم الإسلام، فأبى رسولُ الله ﷺ ذلك إلاَّ أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة وخالد بن الوليد لهدمها.

جاء في البداية والنهاية[1] : وسألوه ﷺ عن الربا والزنا والخمر، فحرم عليهم ذلك كله، فسألوه عن الرَبَّة (اللاَّت) ما هو صانع بها؟ قال ﷺ : «أَهدمها»، قالوا: هيهات، لو تعلم الرَبَّة أنَّك تريد أن تهدمها قتلت أهلها، فقال عمر بن الخطاب: ويحك يا ابن عبد ياليل ما أجهلك، إنَّما الرَبَّة حجر، قالوا: أنت اهدمها، أما نحن فإنا لن نهدمها أبداً، فقال ﷺ : «سأبعث إليكم من يكفيكم هدمها».

وقد كانوا سألوه ﷺ مع ترك اللاَّت أن يُعفيهم من الصلاة، وأن يكسروا أوثانهم بأيديهم، فقال رسول الله ﷺ : «أما كسر أوثانكم بأيديكم فَسَنُعْفِيكم منه، وأما الصلاة فلا خير في دين لا صلاة فيه»، فقالوا: يا محمد، أما هذه فسنُؤتيكها.

---

(١) البداية والنهاية: جـ ٥ ص ٣٣.

فلما أسلموا، كتبوا كتاباً بذلك: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد النبيّ، رسول الله، إلى المؤمنين: إن عضاة وَجّ[1] وصيده لا يعضد[2]، من وجد يفعل شيئاً من ذلك فإنّه يُجْلَد وينزع ثيابه، فإن تعدّى ذلك فإنه يؤخذ فيبلغ النبي محمداً ﷺ، وإن هذا أمر النبي رسول الله ﷺ. وكتب خالد بن سعيد بن العاص بأمر الرسول محمد بن عبد الله، فلا يتعدّاه أحد فيظلم نفسه فيما أمر به محمد رسول الله ﷺ»[3].

وفي فتوح البلدان[4]: فصالحهم على أن يسلموا، ويقرهم على ما في أيديهم، واشترط عليهم ألاّ يرابوا، ولا يشربوا الخمر، وكانوا أصحاب ربا، وكتب لهم كتاباً.

وأمَّرَ عليهم ﷺ عثمانَ بن أَبي العاص[5] - وكان من أحدثهم سِنّاً -

(١) عضَاة: شجر له شوك، ووَجٌّ: اسم الطائف، أو واد فيها، وفي فتوح البلدان: كانت الطائف تسمى وجّاً، فلما حُصِّنت وبني سورها سُمِّيت الطائف.

(٢) لا يعضد: لا يقطع، حرام على غير أهله، فلا شروط سوى اعتناق الإسلام، أما مادون ذلك فلفتة رائعة جداً للحفاظ على الثروة النباتية وخضرة الأرض.

(٣) عيون الأثر: جـ ٢ ص ٢٣٠ و ٢٣١، ابن هشام: جـ ٤ ص ١٣٩، البداية والنهاية: جـ ٥ ص ٣٤.

(٤) فتوح البلدان: ص ٦٧.

(٥) عثمان بن أبي العاص الثقفي، أبو عبد الله، وفد على رسول الله ﷺ في وفد ثقيف فأسلم، واستعمله ﷺ على الطائف، ولم يزل عثمان على الطائف حياة رسول الله ﷺ، وخلافة أبي بكر، وسنتين من خلافة عمر، واستعمله عمر سنة خمس عشرة على عُمَان والبَحْرين، وكان يغزو سنوات في خلافة عمر وعثمان، وهو الذي منع أهل الطائف من الردّة بعد رسول الله ﷺ فأطاعوه، ثم سكن البصرة. أُسد الغابة: جـ ٣ ص ٥٧٩ و ٥٨٠.

وذلك أنه كان أحرصهم على التفقّه في الإسلام وتعلُّم القرآن ، فقال أبو بكر لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ، إني قد رأيتُ هذا الغلام فيهم من أحرصهم على التفقُّه في الإسلام ، وتعلُّم القرآن .

لقد نال عثمان بن أبي العاص إمَارة قومه بالعِلْم ، ونال العِلْم بلسانٍ سؤول ، وقلب عقول .

هَدْمُ ٱللاَّت :

فلما خرج الوفد من عند رسول الله ﷺ توجَّهوا إلى بلادهم راجعين ، بعث رسول الله ﷺ معهم عدداً من الصحابة ، أمَّر عليهم خالد بن الوليد ، وفيهم أبو سفيان بن حرب ، والمغيرة بن شعبة لهدم اللاَّت . وهذه لفتة وسياسة رائعة من رسول الله ﷺ ، فأبو سفيان كان زعيم الوثنيَّة في جزيرة العرب ، وها هو ذا يحطم اللات بيده . والمغيرة ، ابن ثقيف ومن صناديدها ، وكذلك خالد بن الوليد ، فهاهم أبناؤها بإشراف زعيم مكة السابق يحطِّمون اللاَّت .

وفي الطائف خرجت ثقيف ، رجالها ونساؤها والصبيان ، حتى خرج العواتق من الحجال ، ولا يرى عامة ثقيف أَنها مهدومة ، ويظنُّون أَنها ممتنعة ، فقام المغيرة بن شعبة فأخذ المعول ، وقال لأصحابه : والله لأُضْحِكَنَّكم من ثقيف ، فضرب بالمعول ثم سقط يركض برجله ، فارتج أهل الطائف بصيحة واحدة وفرحوا ، وقالوا : أبعد الله المغيرة ، قتلته

الرَّبَّة (يعني اللاَّت) ، وقالوا : من شاء منكم فليقترب ، فقام المغيرة فقال : والله يا معشر ثقيف إنما هي لُكَاع حجارة ومَدَر[1] ، فاقبلوا عافية الله واعبدوه ، ثم ضرب الباب فكسره ، ثم علا سورها وعلا الرجال معه ، فما زالوا يهدمونها حجراً حجراً حتى سووها بالأرض ، وسادنها يقول : ليغضبن الأساس فليخسفن بهم ، فلما سمع المغيرة ذلك قال لخالد : دعني أحفر أساسها ، فحفروه حتى أخرجوا ترابها ، وبهتت عند ذلك ثقيف[2] .

ومما يذكر أن قوم المغيرة ـ بنو مُعَتَّب ـ قاموا حوله خشية أن يُرْمى أو يصاب كما أُصيب عُرْوة ، ونساء ثقيف حُسَّراً يبكين على اللاَّت يقلن :

ألاَ أبْكِيَنْ دُفَّـاعْ[3] أَسْلَمَهَـا الرُّضَّـاعْ[4]

لم يُحْسِنوا المِصَاعْ[5]

---

(١) اللُّكاعةُ : شوكة تُختَطَبُ لها سُوَيقة قدر الشِّبْر ليِّنة كأنها سَيْر ، ولها فُرُوع مملوءة شوكاً ، وفي خلال الشوك وُرَيقة لابال بها تنقبض ثم يَبْقى الشوك ، فإذا جفَّت ابيضت ، وجمعها لُكاعٌ . لسان العرب : جـ ٨ ص ٣٢٤ ، والمَدَرُ : قِطَعُ الطينِ اليابس . لسان العرب : جـ ٥ ص ١٦٢ .

(٢) الاكتفاء : جـ ١ ص ١٥٧ / ب ، البداية والنهاية : جـ ٥ ص ٣٣ و ٣٤ .

(٣) وفي البداية والنهاية : « لنبكين دِفَاعْ » .

(٤) وفي البداية والنهاية : « اسلمها الرِضَاع » ، والرضاع هنا : اللِّئام .

(٥) المِصَاع : المصارعة ، والأبيات في : ابن هشام : جـ ٤ ص ١٣٨ ، الطبري : جـ ٣ ص ١٠٠ ، البداية والنهاية : جـ ٥ ص ٣٣ .

والمسلمون يضربونها بالمعول ويقولون : واهاً لك ! واهاً لك . وأخذ المغيرة مالها وحُلِيَّها[1] ، فقضى دين عروة والأسود ابني مسعود كما أمر رسول الله ﷺ ، وقسَّم الباقي[2] .

يدّعي بعض المستشرقين المتعصّبين عند حديثهم عن صدر الإسلام ، أنّه أبقى على شعائر وثنيَّة في مبادئه وشعائره ، ويقدِّمون ذلك حقائقَ في أذهان شعوبهم حقداً وصليبيَّة .

من هؤلاء المستشرقين الأب يوليوس فلهاوزن[3] ، عندما قال عن الحج والكعبة : « وبذلك دخل في الإسلام مركزٌ للشعائر الوثنيَّة ، وعيد وثني شعبي » . وهدم اللاَّت دليل قاطع لكل ذي بصيرة نزيه ، أن الإسلام وقف موقفاً لا هوادة فيه ولا جدال ، لا تهاون فيه ولا تردُّد ، مُثَبِّتاً أركان التوحيد المطلق لله عز وجل ، وهدم اللاَّت دليل ، وهدم العُزّى ، والأصنام حول الكعبة بعد الفتح الأعظم ، دليل آخر على

---

(١) اللاَّت : صخرة نصبها لثقيف في الطائف عمرو بن لحي صنماً يعبدونها ، وبنت ثقيف لها بيتاً ، وجعلت لها سَدَنة (خدماً) ، وعظَّمته وطافت به ، وهي اليوم تحت مسجد الطائف . معجم البلدان : جـ ٥ ص ٤ .

(٢) ابن خلدون : جـ ٢ ص ٥١ .

(٣) في كتابه : « تاريخ الدولة العربيَّة » ص ١٨ ، الألف كتاب (١٣٦) القاهرة ١٩٥٨ ، لجنة التأليف والترجمة والنشر .

رفض الإسلام المبدئي والثابت لكل ما هو وثني، ومحوه كل أثر له بجزم وثبات ورؤية واضحة.

وإسلام ثقيف، وهدم اللاّت، يذكرنا بخروج رسول الله ﷺ إلى الطائف قبل هجرته إلى المدينة المنوّرة[1]، ليبلّغَ ثَقيفاً دعوة الإسلام، وليُؤْووه حتى يبلغ رسالة ربّه عز وجل، وذلك بعد موت عمه أبي طالب، فردُّوا عليه قوله وكذّبوه، وقام من عندهم وقد يئس من خير الطائف، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، وصار زيد بن حارثة يقي بنفسه رسول الله ﷺ من حجارة ثقيف، وشج رأس زيد شجاً كبيراً، ودميت قَدَمَاه ﷺ[2].

وألجأت حجارةُ ثقيف رسول الله ﷺ إلى بستان لعتبة وشيبة ابني ربيعة، وكانا فيه، ورجع سفهاء ثقيف، وكانت نتيجة هذه الرحلة الشاقة إسلام عَدّاس[3] فقط.

ولما قال له جبريل عليه السّلام: «يا محمد، إن ربّك يقرأ عليك السّلام، وقد سمع قول قومك لك وما ردُّوا عليك، فإن شئت أن أُطبق

---

(١) كان معه ﷺ زيد بن حارثة رضي الله عنه.

(٢) عيون الأثر: جـ ٢ ص ١٣٤، الوفا بأحوال المصطفى: جـ ١ ص ٢١٢، ابن هشام: جـ ٢ ص ٤٨ و ٥٩، الطبري: جـ ٢ ص ٣٤٦، الكامل في التاريخ: جـ ٢ ص ٦٤، البداية والنهاية: جـ ٣ ص ١٣٦، السِّيرة الحلبيَّة: جـ ١ ص ٣٨٥.

(٣) عَدّاس: غلام نصراني من نينوى بلدة يونس بن متى عليه السّلام.

عليهم الأخشبين ؟ » ، فقال ﷺ : « بل أَسْتَأْني بهم لعل الله أن يُخرج من أصلابهم من يعبده وحده لا يشرك به شيئاً » . فناسب قوله ﷺ : « بل أستأني بهم » ، ألاَّ يُفتح حصنهم لئلا يُقتلوا عن آخرهم ، وأن يؤخر الفتح ليَقْدموا بعد ذلك مسلمين[1] .

☆ ☆ ☆

وَأَخِيراً ..

تُقْرَنُ غزوة بدر بغزوة حنين[2] ، كسر الله عز وجل بهما ثورة الكفر ، وأطفأتا جمرة الشرك والوثنيَّة ، وأنفدتا سهامهما ، وهزمتا الوثنيين حتى لم يجدوا بُدّاً من الدخول في دين الله ، وتحقَّق قوله تعالى : ﴿ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً ﴾ [النصر ١١٠ / ٢] .

وَلْتَبْقَ النقاط التالية في أذهاننا بعد معرفتنا الأحداث التاريخيَّة لغزوة حنين ، وحصار الطائف :

١ ـ اقتضت حكمته سبحانه وتعالى أن أذاق المسلمين أوَّلاً مرارة الهزيمة في حنين مع كثرة عددهم ، وقوة شوكتهم ، لتبقى القلوب معلَّقة

---

(١) السِّيرة النبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٦٦٥ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٣٥٢ .

(٢) السِّيرة النبويَّة والآثار المحمديَّة : جـ ٢ ص ٣٦١ .

به ، وبخاصة بعد الفتح الأعظم ، فابتلاهم بحنين منعاً لهم من التَّرفُّع ، وتنبيهاً إلى أن المطلوب منهم التواضع وإظهار الشكر ، كما كان قدوتهم وأُسوتهم ﷺ عندما دخل مكَّة المكرَّمة ، متواضعاً على ناقته خاضعاً لله عز وجل ، وليبيِّن سبحانه لمن قال : لن نغلب اليوم من قِلَّة ، أن النصر إنما هو من عند الله ، وأن من ينصره الله فلا غالب له ، ومن يخذله فلا ناصر له ، وأنه سبحانه وتعالى هو الذي تولَّى النصر لنبيِّه ، وهو الذي أنزل سكينته : ﴿ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا ﴾ [التوبة ٩ / ٢٦] .

٢ ـ لقد افتتحَ اللهُ عز وجل غزو العرب ببدر ، واختتمه بحنين ، وهما من أعظم غزواته ﷺ ، ولهذا يُجْمَعُ بينهما في الذكر ، فيُقَال : بدر وحنين .

٣ ـ وفي لبسه ﷺ أكمل الخُلُق توكُّلاً وقوَّة ويقيناً ، لقد دخل مكَّة والخوذة على رأسه ، ولبس يوم حنين دِرْعَيْن ، فمن تمام العبودية استعمال الأسباب في مسبباتها ، مع أن الله عز وجل خاطبه في محكم التنزيل : ﴿ وَٱللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [المائدة ٥ / ٦٧] .

٤ ـ ولم يفلح مالك بن عوف النَّصْري إلا بتنظيم الكمين في وادي حنين ، حيث فاجأ به المسلمين قبيل الفجر ، ولكن عندما طلع النهار ، وعرفت الوجوه بعضها ، مع صمود وثبات رسول الله ﷺ ونفر من

أصحابه، انقلب الثبات تقدُّماً، والصُّمود هجوماً، عندها فقد مالك سيطرته على هوازن وثقيف، وانقلب انسحابه الفوضوي - لأنه كان من أوَّل الفارِّين، ولأنه لم يستطع تأمين انسحاب قواته مع حماية مؤخرتها - إلى هزيمة مع خسائر كبيرة في الأرواح.

٥ - ويمكننا القول، إن ثبات رسول الله ﷺ حقَّق حماية مؤخرة المسلمين المنهزمين في بدء غزوة حنين، ثم جمع من حوله خُلَّص أصحابه، ثم قَلَبَ الهزيمة نصراً، وكسب المعركة بفضل ثباته وحده ﷺ.

٦ - وأثناء انهماك المسلمين في استثمار النصر، ومطاردة هوازن وثقيف، قُتِلَت امرأةٌ واحدة، فغضب رسول الله ﷺ لذلك، لأنَّه حقَّق انتصاراته كلها، من بدر إلى تبوك، بوسائل شريفة، بعيدة عن الظلم والغدر والعدوان، أو قتل امرأة أو طفل أو شيخ هَرِم أو مستضعف..

٧ - وفكُّ الحصار عن الطائف لحلول الأشهر الحرم، ولعدم استعدادات المسلمين من حيث آلات الحصار، جعلهم يلتفتون عبر تاريخهم بجد وعناية فائقة إلى صناعة أسلحتهم الثقيلة، وبخاصة أدوات الحصار في حروبهم البريَّة، والسُّفُن لحروبهم البحريَّة.

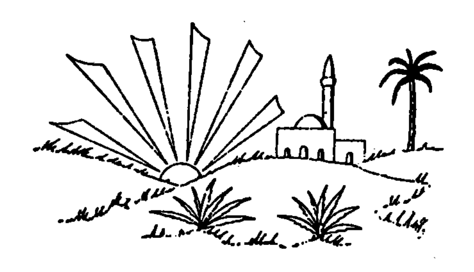
٨ - وفي صبره ﷺ على جفاة الأعراب عند قسمة الغنائم دليل لما كان عليه من الكرم والحلم وحسن الخلق، وسعة الجود والصبر.

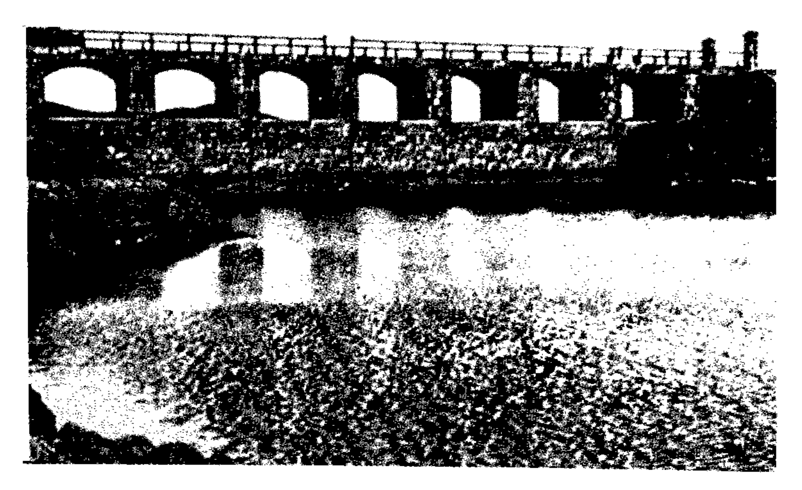
٩ ـ وفي معالجته لموقف الأنصار بسياسته الحكيمة، حيث خرجوا وهم في منتهى القبول والقناعة برسول الله ﷺ قائداً حكيماً، وسياسياً حاذقاً.

١٠ ـ لقد انهزم المسلمون في بدء غزوة حنين، بسبب خلل أصاب النفوس، ألا وهو الإعجاب بالكثرة، ونسيان الله عز وجل، لقد تناست القلوب في حنين مسبب الأسباب، مسبب النصر، وأُعجبت بالكثرة، وأُخذت بها، فكان الدرس القَيِّم، لتبلغ أُمتنا قمة التجرد لله عز وجل وحده، وأن تصل غاية الإخلاص لدينه.

والحمد لله رب العالمين أوّلاً وآخراً

☆ ☆ ☆

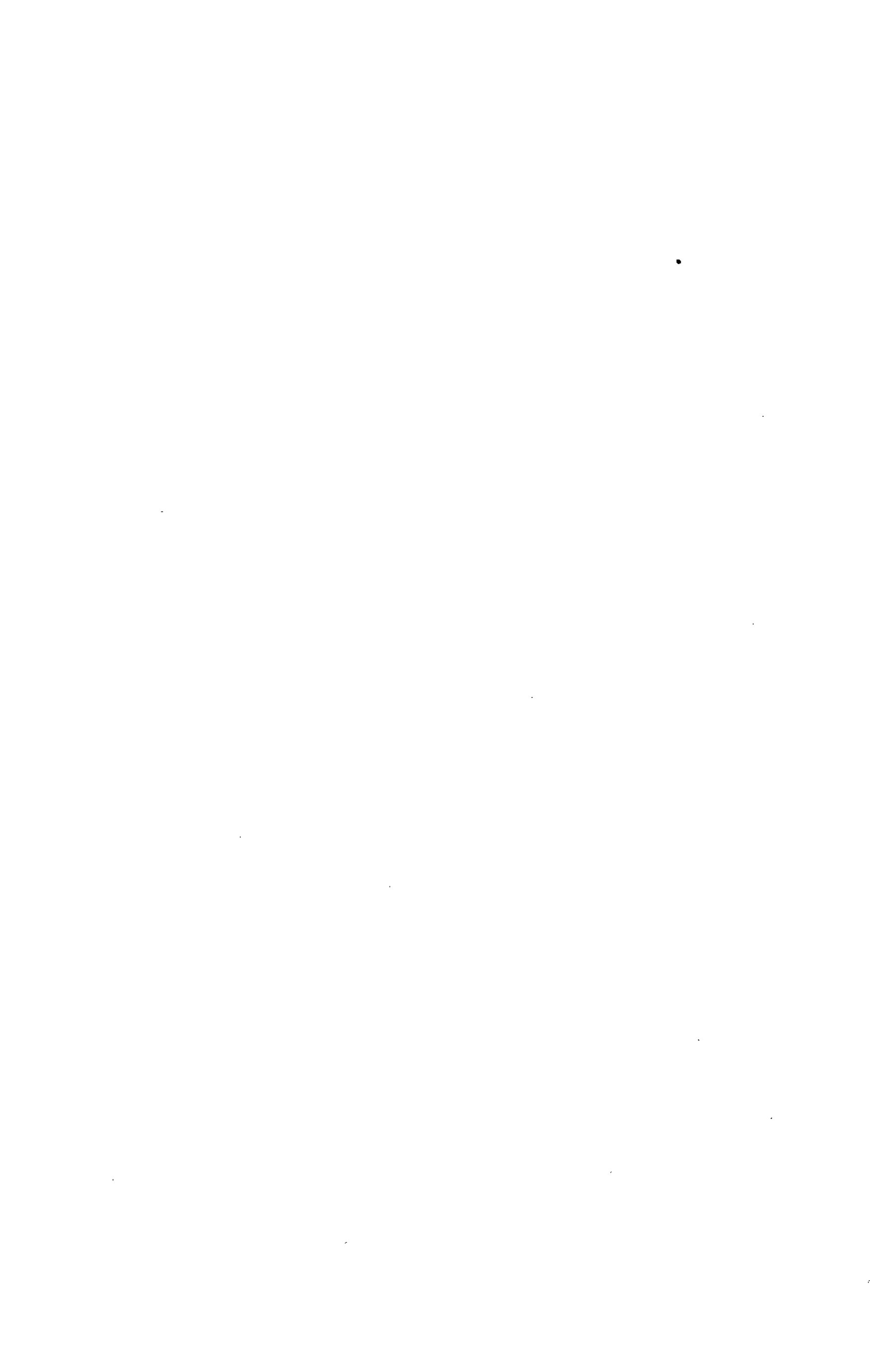




سد « عكرمة » حيث حارب النبي ثقيفاً . وقد جُدد بناؤه حديثاً

مسجد عَدّاس قرب الطائف

جزء من طريق مكة ـ الطائف في أوعر مناطقه



المحتوى

صفحة